سورة (الحديد) ومنهجها
في تربية النفس الإنسانية
"دراسة تفسيرية"

إعداد

د/ هند البسطويسي مصطفى عطا
مدرس التفسير وعلوم القرآن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة
جامعة الأزهر

سورة (الحديد) ومنهجها في تربية النفس الإنسانية "دراسة تفسيرية"

هند البسطويسي مصطفى عطا

قسم: التفسير وعلوم القرآن- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة، جامعة الأزهر.

البريد الإلكتروني: dr.HendAta@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف البحث إلى إبراز نموذجٍ للمنهج القرآني الفريد في تربية النفس الإنسانية، من خلال تفسير «سورة الحديد»، والتي اشتملت على العديد من الموضوعات التي من شأنها أن تربي النفس الإنسانية تربيةً متكاملةً على أساسٍ من العقيدة الصحيحة والتشريع الحكيم، فقد افتتحت السورة الكريمة بالتعريف بصفات الله -تعالى-، وبيان بعض مظاهر قدرته -ﷻ-، ثم دعت إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ، والإنفاق في سبيل الله، ثم عرضت بعض مشاهد يوم القيامة، ورغّبت في الرجوع إلى الله -تعالى-، وخشوع القلب لأوامره، وبينت جزاء المؤمنين والمُصَدِّقين، كما بيّنت حقيقة الحياة الدنيا، ودعت للمسابقة إلى مغفرة الله وجنته، ونهت المؤمن عن الحزن على ما فات، أو الفرح بما في يديه، لأن كل شيء قد سبقت كتابته عند الله، ونبذت البخل وأصحابه، ثم بينت بعض الحِكَم من إرسال الرسل، وأن منها إقامة القسط بين الناس، وخُتِمت السورة بتحفيز المؤمن على تقوى الله -عزّ وجل- لنيل الأجر المضاعف منه -سبحانه- والحصول على النور والهدى الذي يميز به بين الحق والباطل، وتحصيل المغفرة، وابتغاء الأجر من الله -تعالى- وحده، ذلك أن الله ذو الفضل العظيم.

كل ذلك بأسلوب حكيم بليغ... يُقنع العقل، ويثير العاطفة، ويأسر القلب، ويخاطب الوجدان، ويوقظ الضمير، ويربي النفس، ويهذب الروح، فلا تملك النفس الإنسانية أمام بيانه الرائع إلا أن تعود إلى رشدها، وترجع إلى خالقها الذي يعلم خباياها وأسرارها، فتَمْتَثِل لشرعه، وتطمئن لما عنده، وترضى بحكمه، وتقنع بعطائه، فتنال سعادة الدنيا والآخرة.

الكلمات المفتاحية: تفسير- سورة الحديد- تربية- النفس- الإنسان – الإنسانية

Surat al-Hadid and its Approach to the Education of the Human Psyche "An Explanatory Study”

Hend Al , Bastawisy Mustafa Atta
Department: Tafseer and Qur'anic Sciences - College of Islamic and Arabic Studies for Girls in Mansoura ، Al-Azhar University.
Email: dr.HendAta@azhar.edu.eg

Summary:

The research aims to highlight a model of the unique Qur'anic style in the education of the human soul, through the interpretation of «Surat al-Hadid», which included many topics that would educate the human soul in an integrated education on the basis of the correct doctrine and wise legislation, the Holy Surah opened by introducing the attributes of Allah -Almighty-, and indicating some manifestations of His power, then called for faith in Allah and His Messenger, and spending for the sake of Allah, the showed some scenes of the Day of Judgment, and wanted to return to Allah (Almighty), and the reverence of the heart for His commands, and showed rewarded believers and those who believed, as it showed the truth of the worldly life, and called for the competition to forgive God and his paradise, and forbade the believer from grief for what he missed, or joy with what he had in his hands, because everything had already been written down with God, and it renounced stinginess and his companions, and then showed some of the reasons from sending the apostles, and that among them is the establishment of the installment among the people, and the surah is to motivate the believer to be godly to Allah - the Almighty - to receive double the reward from him - praise be to him - and to obtain the light and guidance by which he distinguishes between truth and falsehood, and to obtain forgiveness, and to seek remuneration from Allah - Almighty - alone, because God is of great credit.

All of this in a wise and eloquent manner... It convinces the mind, arouses passion, captivates the heart, addresses conscience, awakens conscience, educates the soul, refines the soul, so that the human soul in front of his wonderful statement can only return to its senses,

return to its Creator who knows its secrets, and be assured of what it has, be satisfied with His judgment, and be persuaded by His giving, It will be happy in this world and in the hereafter.

Keywords:

Tafseer - Surat Al-Hadid - Education - Soul - Man - Humanity

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي خلق النفس وسواها، وألهمها فجورها وتقواها، والصلاة والسلام على أشرف الخلق، وإمام الحق نبينا محمد - ﷺ - الذي زكاه ربه - تعالى- بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١)، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين، وبعد..

فإن الإنسان كائن مخلوق لله -عز وجل- فضّله على سائر المخلوقات، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وبيّن له طريق الخير وطريق الشرّ، ومنحه العقل الذي يميّز به بين الأشياء، ويستطيع من خلاله النظر والتأمل والتفكير، وجعله متجاوبًا مع الفطرة السليمة الراشدة، وحرم أيّ عدوان عليه سواء أكان ماديًّا أو معنويًّا.

ويُعَدّ حفظ النفس الإنسانية من أهم مقاصد الشرع الإسلامي الحكيم، قال الإمام الغزالي -رحمه الله-: "ومقصود الشرع من الخلق خمسة؛ وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم"(٢).

وكما أن حفظ النفس يكون بحفظها ماديًّا من أي عدوان كالقتل ونحوه، فإنه يكون أيضًا بحفظها معنويًّا؛ وذلك بتزكيتها وتطهيرها وتربيتها والارتقاء بها، وصونها عن الرذائل، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾(٣).

"ولا شكّ أن في القرآن الكريم طاقةً روحية هائلة ذات تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان. فهو يهزّ وجدانه، ويُرهف أحاسيسه ومشاعره، ويُصقل روحه، ويوقظ إدراكه وتفكيره، ويُجلي بصيرته، فإذا بالإنسان بعد أن يتعرّض لتأثير القرآن يصبح إنسانًا جديدًا، كأنه خُلق خلقًا جديدًا"(٤).

---

(١) سورة: (القلم)- الآية: ٤.

(٢) "المستصفى في علم الأصول" - أبو حامد الغزالي – ط. دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ- تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي.

(٣) سورة: (الشمس)- الآيات: ٧ – ١٠.

(٤) "القرآن وعلم النفس"- د/ محمد عثمان نجاتي- أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة: (ص: ٢٦٦) ط. دار الشروق- القاهرة-الطبعة السابعة- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

ففي آيات القرآن الكريم وسوره منهج شامل لصيانة النفس الإنسانية، وتربيتها على الوجه الأكمل، تربيةً سويّةً تصل بها إلى الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة. كلّ ذلك بأسلوب تربويّ فريد، يصل إلى أعماق النفس، مصححًا للعقيدة، وموجهًا للسلوك، وضابطًا للانفعالات، ومُقوّمًا للوجدان.

فلم يترك الخالق -عز وجل- الإنسان عرضةً لأن يقع في براثن الأهواء والأمراض النفسية؛ كالقلق، والاكتئاب، والطمع، والغرور، والكبر، والشحّ وغيرها، بل أرشده إلى ما فيه صلاح نفسه وتزكيتها. وإذا كان الله -تعالى- هو خالق هذه النفس؛ فإنه وحده هو العليم بأسرارها وأغوارها، وهو الخبير بما يصلحها وما يفسدها، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

"والإسلام يدفع عن أبنائه كل مشاعر الاكتئاب والحزن، وكافة المشاعر السلبية كالحقد والحسد والغيرة والانتقام والكراهية والبغض والقلق والخوف والرهبة والشك والريبة عن طريق الإيمان القلبي، والذي يقرّه العمل الفعلي للمسلم، وعن طريق الكثير من التكاليف والعبادات والمبادئ الإسلامية"[2].

وهنا نجد القرآن الكريم يبين لنا أن الإيمان بالله- عز وجلّ- كفيلٌ بأن يصل بالإنسان إلى هداية القلب، وطمأنينة النفس، ويحميه من أن تصيبه أي أمراض أو اضطرابات نفسية؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[3].

وحتى يكون الإنسان في طمأنينةٍ دائمةٍ، فعليه بالمواظبة على ذكر الله -عز وجل- وعدم الغفلة عنه؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[4].

كما ذكر القرآن الكريم أن الله -عز وجل- لم يكلف النفس فوق طاقتها، وأنها

---

(١) سورة: (الملك)- الآية: ١٤.

(٢) "صيانة النفس الإنسانية" أ.د/ عبد الرحمن محمد العيسوي- ص: (٣٠٢)- ط. دار طيبة- مدينة نصر- القاهرة.

(٣) سورة: (التغابن)- من الآية: ١١.

(٤) سورة: (الرعد)- الآية: ٢٨.

محاسبة ومسئولة أمام الله -عز وجل-؛ قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[١].

ولم يطلب الله -تعالى- من الإنسان شيئًا إلا في حدود إمكاناته، وأمّله في اليسر بعد العسر، وفي الفرج بعد الشدّة؛ قال سبحانه: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[٢].

كما بيّن القرآن الكريم أن هناك يومًا للبعث والحساب والجزاء، تحاسب فيه كل نفسٍ على أعمالها وحدها، فلا يحمل الوالد ذنب ولده، ولا الابن ذنب أبيه، ومن أجل ذلك يجب على المرء ألا يغتر بالدنيا وزينتها، وألا يغتر بحلم الله وكرمه؛ قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾[٣]، وقال -عز وجل-: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[٤].

وبيّن القرآن الكريم أن النفع والضرّ بيد الله-تعالى- وحده، وأن الغيب لا يعلمه إلا هو -سبحانه- فلم يُطلع عليه ملكٌ مقرب ولا نبي مرسل، قال تعالى مخاطبًا نبيه -ﷺ-: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى

---

(١) سورة: (البقرة)- من الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة: (الطلاق)- الآية: ٧.
(٣) سورة: (لقمان)- الآية: ٣٣.
(٤) سورة: (البقرة)- الآية: ٤٨.
(٥) سورة: (الأعراف)- من الآية: ١٨٨.

نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[١].

ولذا يجب على الإنسان أن يطمئنّ، فرزقه بيد الله – تعالى- وحده، وليس بيد أحدٍ سواه، وهو -سبحانه- قد تكفّل به؛ بل وبرزق كل الكائنات، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾[٢].

فكيف للإنسان بعد هذا كله أن يترك نفسه حتى تقع في مهاوي الرِّدى والضلال، أو أن تُنهكها الأمراض والأهواء؟!

أسباب اختياري للموضوع:

بالتأمل في سور القرآن الكريم نجد أن لكل سورة طابعًا خاصًّا، ومحورًا ثابتًا تدور حوله، حتى مع كثرة الآيات وتعدد الموضوعات في السورة؛ إلا أننا نجد أن هناك وحدة موضوعية لهذه الآيات في السورة الواحدة، وأن هناك "روابط خفيّة تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدًا لآخرها، وآخرها تصديقًا لأولها"[٣].

وعندما تأملت في سورة "الحديد" وجدت أن السورة تدور حول محور أساسي، ألا وهو (تربية النفس الإنسانية والرّقي بها، على أساس من العقيدة الصحيحة، والتشريع الحكيم، وحفظها ماديا بإعداد القوة التي تحميها من عدوان المعتدين)، فأردت إعداد بحثٍ أتناول من خلاله تفسير تلك السورة الكريمة تفسيرًا موضوعيًّا[٤]، ملقيةً الضوء على أهم الأساليب التي استخدمتها تلك السورة بصفة خاصة، والقرآن الكريم بصفة عامة، لتربية النفس الإنسانية والارتقاء بها وتزكيتها، والبعد بها عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى اضطرابها أو هلاكها، وجعلت عنوانه: (سورة الحديد ومنهجها في تربية النفس الإنسانية "دراسة تفسيرية"). أسأل الله -ﷻ- أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعني به، والمسلمين.

---

(١) سورة: (لقمان)- الآية: ٣٤.

(٢) سورة: (هود)- الآية: ٦.

(٣) "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم"- الشيخ: محمد الغزالي- ص: (٥) ط. دار الشروق- مصر.

(٤) أقصد بالتفسير الموضوعي هنا: دراسة تلك السورة الكريمة، بهدف إبراز الوحدة الموضوعية بين جوانبها المتعددة، وإلقاء الضوء على أهم ما اشتملت عليه من أساليب تربوية لحفظ النفس الإنسانية وتزكيتها.

أهمية البحث:

إن ما يعانيه كثير من الناس من مشاكل واضطرابات نفسية؛ كالقلق والحزن والاكتئاب – خاصة في هذا العصر الذي كثرت فيه وسائل التقنية الحديثة، وتوفرت فيه كل أسباب المتعة والرفاهية – سببه الرئيسي هو البعد عن منهج الله -عز وجل- ، وعدم اتباع أمره، ولا شك أنه لا سبيل إلى النجاة من كل هذه الأزمات والاضطرابات إلا بالرجوع إلى الله تعالى، والإيمان به، والتمسك بكتابه الكريم الذي فيه العلاج النافع والحل الأمثل لهذه المشكلات وغيرها، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، وفي هذا البحث إبرازٌ لبعض الجوانب التي تناولتها سورة من سور القرآن الكريم لتربية النفس الإنسانية تربية متكاملة.

منهج البحث:

أولًا: المنهج الاستقرائي: "وهو المنهج الذي يُتَتبع فيه الجزئيات المتجانسة في شيء ما، قصد تركيب صورة كليّة منها لإنتاج قاعدة أو تعميم حكم"[٢]، حيث قمت باستقراء الآيات القرآنية المرتبطة بموضوع الآية التي أقوم بتفسيرها، بهدف تكوين صورة كلّية عن موضوعها.

ثانيًا: المنهج التحليلي: "وهو منهج يقوم على دراسة الإشكالات العلمية المختلفة تفكيكًا أو تركيبًا أو تقويمًا"[٣]، حيث قمت بتحليل الآيات القرآنية الواردة في السورة، والوقوف على معانيها.

ثالثًا: المنهج الاستنباطي: "وهو منهج يبدأ من قضايا مبدئية يُسلّم بها إلى قضايا أخرى، تنتج عنها بالضرورة"[٤]، حيث قمت باستنباط أهم الأساليب التربوية التي استخدمتها تلك السورة الكريمة لتربية النفس الإنسانية وتزكيتها.

---

(١) سورة: (الإسراء)- من الآية: ٨٢.

(٢) "أبجديات البحث في العلوم الشرعية "- فريد الأنصاري: (ص: ١٨٦) - ط. دار النجاح الجديدة- الدار البيضاء- ط. الأولى- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٣) "المرجع السابق": (ص: ٩٦).

(٤) "مناهج البحث العلمي" د. عبد الرحمن بدوي: (ص:٨٢) ط. وكالة المطبوعات- الكويت- الطبعة: الثالثة- ١٩٧٧م.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يكون مكوَّنًا مما يلي:

مقدمة، وتمهيد، وثمانية مباحث، وخاتمة، وفهارس

أما المقدمة فتشتمل على: أهمية الموضوع، وأسباب اختياري له، ومنهج البحث، وخطته.

التمهيد: وفيه التعريف بمفردات البحث.

المبحث الأول: التعريف بصفات الله -تعالى-، وبيان بعض مظاهر قدرته -ﷻ-، وأثر ذلك في تربية النفس الإنسانية.

المبحث الثاني: الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ، والإنفاق في سبيل الله، وأثر ذلك في تربية النفس الإنسانية.

المبحث الثالث: عرض بعض مشاهد يوم القيامة، وأثره على النفس الإنسانية.

المبحث الرابع: الترغيب في الرجوع إلى الله -تعالى-، وخشوع القلب لأوامره، وبيان جزاء المؤمنين والمصَّدِّقين، وأثر ذلك على النفس الإنسانية.

المبحث الخامس: بيان حقيقة الحياة الدنيا، والدعوة للمسابقة إلى مغفرة الله وجنته، وأثر ذلك على النفس الإنسانية.

المبحث السادس: نهي المؤمن عن الحزن على ما فات، أو الفرح بما في يديه، لأن كل شيء قد سبقت كتابته عند الله، وذم البخل، وأثر ذلك على تربية النفس الإنسانية.

المبحث السابع: بيان بعض الحكم من إرسال الرسل، وأن منها إقامة القسط بين الناس، وأثر ذلك على النفس الإنسانية.

المبحث الثامن: ختام السورة بتحفيز المؤمن على تقوى الله -عزّ وجل- لنيل الأجر المضاعف، وابتغاء الفضل منه -عزّ وجلّ- وحده، وأثر ذلك على تربية النفس الإنسانية..

- وأما الخاتمة: فتتضمن أهم النتائج التي توصّل إليها البحث، وأهمّ التوصيات.

- الفهارس: وتتضمن أهم المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

تمهيد

وفيه التعريف بمفردات البحث:

أولًا: التعريف بسورة الحديد:

سورة الحديد من السور المدنية، وهي تسع وعشرون آية[١] .

قال القرطبي: "مدنية في قول الجميع"[٢]، وقيل: هي مكية[٣] .

قال ابن عطية: "ولا خلاف أن فيها قرآنا مدنيا، لكن يُشبه صدرها أن يكون مكيًّا -والله أعلم-"[٤].

مناسبة السورة لما قبلها:

مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة، فقد ختمت سورة الواقعة بالأمر بالتسبيح في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾[٥]، وافتتحت هذه السورة الكريمة بالإخبار بأن التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل ما في السماوات والأرض[٦] ؛ قال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [٧].

---

(١) يراجع: "تفسير القرآن العظيم" -ابن كثير: (٧/ ٥) - ط. دار طيبة -الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، "فتح القدير"- محمد بن علي الشوكاني: (٥/ ١٩٨) ط. دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.

(٢) "الجامع لأحكام القرآن"- القرطبي: (١٧/ ٢٣٥) ط. دار الكتب المصرية – القاهرة- الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٣) ذكر ذلك الزمخشري -رحمه الله- في تفسيره. " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: (٤/ ٤٧٠) ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٤) "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: (٥/ ٢٥٦) ط. دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

(٥) سورة: "الواقعة"- الآية: (٩٦).

(٦) يراجع: "البحر المحيط" أبو حيان محمد بن يوسف لأندلسي: (١٠/ ١٠٠) ط. دار الفكر – بيروت- الطبعة: ١٤٢٠هـ.

(٧) سورة: " الحديد"- الآية: (١).

تسميتها:

سميت "سورة الحديد" بذلك، لورود ذكره في الآية الخامسة والعشرين منها، والإشارة إلى ما فيه من منافع للناس سواء في السلم أو في الحرب؛ فهو عصب جميع الصناعات، ومنه تتخذ آلات الحرب ويدفع الناس به عدوان بعضهم على بعض.

ثانيًا: التعريف بلفظ (التربية):

تدور مادة (التربية) في اللغة حول عدة معاني، منها: النماء والزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾[١]، أي: زادت زيادة المتربّي[٢]، يقال: ربَّى الشَّخصُ المالَ: نمّاه، ومنها: التنشئة والرعاية؛ يقال: "تَرَبَّبَه، وارْتَبَّه، ورَبَّاه تَرْبِيَةً، وتَرَبَّاه: أَحسَنَ القِيامَ عَلَيْهِ، وَوَلِيَه حَتَّى يُفارِقَ الطُّفُولِيَّةَ، كَانَ ابْنَه أَو لَمْ يَكُنْ"[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[٤]، "ويقال: ربَا الولدُ في بني فلان: نشأ في رعايتهم، وتربَّى الولدُ: تعلّم وتغذّى وتثقَّف، و ربَّى الأبُ ابنَه: هذّبه ونمّى قواه الجسميّة والعقليّة والخلقيّة كي تبلغ كمالها[٥]"، يقول تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[٦].

وعلم التَّربية: " هو علم وظيفته البحث في أسس التنمية البشرية وعواملها وأهدافها

---

(١) سورة: (الحج) - من الآية: (٥).

(٢) "المفردات في غريب القرآن" - أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ): (ص: ٣٤٠) ط. دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

(٣) "لسان العرب" جمال الدين ابن منظور: (١/ ٤٠١) – مادة: (ربب) – ط. دار صادر – بيروت- الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

(٤) سورة: (الشعراء) -آية: ١٨.

(٥) يراجع: "معجم اللغة العربية المعاصرة"- د أحمد مختار عبد الحميد، بمساعدة فريق عمل: (٢/ ٨٥١، ٨٥٢) - مادة: (ربو) - ط. عالم الكتب- الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

(٦) سورة: (الإسراء)- من الآية: (٢٤).

الكبرى، ويهدف إلى تنمية الوظائف الجسميّة والعقليّة والخُلُقيّة كي تبلغ كمالها"[١]

والتربية بمعناها الواسع تعني: كل عملية تساعد على تشكيل عقل الفرد وجسمه وخلقه[٢].

ثالثًا: التعريف بـ (النفس الإنسانية):

تأتي لنفس بمعنى: الروح ؛ يقال: "خَرَجَتْ نَفْس فُلَانٍ أَي: رُوحُه، وَفِي نَفْس فُلَانٍ أَن يَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا أَي: فِي رُوعِه"[٣]، ومنه قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[٤]. أي: "يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان"[٥].

كما تأتي بمعنى: الذات؛ يقال: "قتَل فلانٌ نَفْسَه وأَهلك نَفْسَه؛ أَي: أَوْقَعَ الإِهْلاك بِذَاتِهِ كلِّها وحقيقتِه"[٦]، ومنه قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[٧]، وفي الحديث الشريف يقول النبي -ﷺ-: **{ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ}**[٨].

وتأتي بمعنى: القلب؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾[٩].

وبمعنى: القوّة المفكرة في الإنسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[١٠].

---

(١) "معجم اللغة العربية المعاصرة": (٢/ ٨٥٢).
(٢) يراجع: "أصول التربية المعاصرة"-أ. د/ رأفت عبد العزيز البويهي، وآخرون: (ص: ٢٠٥) ط. دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.
(٣) "لسان العرب": (٦/ ٢٣٣) -مادة: (نفس).
(٤) سورة: (الزمر)- من الآية: (٤٢).
(٥) "تفسير القرآن العظيم"- ابن كثير: (٧/ ١٠١).
(٦) "لسان العرب": (٦/ ٢٣٣) -مادة: (نفس).
(٧) سورة: (التحريم)- من الآية: (٦).
(٨) أخرجه البخاري -رحمه الله- في صحيحه عن أنس -رضي الله عنه-: (١٤/١) – رقم (١٣)، كتاب: "الإيمان" – باب: "من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه"- ت: د. مصطفى ديب البغا- ط. دار ابن كثير، اليمامة – بيروت- الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.
(٩) سورة: (الأعراف)- من الآية: (٢٠٥).
(١٠) سورة: (النمل)- من الآية: (١٤).

وإذا ذكر قتل النفس في القرآن؛ فإنما هو قتل الإنسان أو الناس، قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[١].

فالنفس "تأتي في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التي يدركها النوم، والقوة التي يُزهقها القتل، والقوة التي تحس النعمة والعذاب، وتلهم الفجور والتقوى، وتحاسب على ما تعمل وتريد، مهتدية بهدي العقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى، وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة. والإنسان أعم من النفس؛ لأنه مسؤول أن ينهاها؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[٢] +، فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هي «الذات الإنسانية»".[٣]

وقد ذكر القرآن الكريم النفس بأنواعها المختلفة التي يدرسها علماء النفس المتخصصون في العصر الحديث، فذكر النفس الأمارة بالسوء[٤] ، والنفس اللوّامة[٥]، والنفس المطمئنة الواثقة بربها[٦].

"ويمكن القول بأن مفهوم «النفس الإنسانية» في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يعني: ذات الإنسان، أو الكل المتكامل الناتج عن تفاعل الجسد والروح، وتشمل كلًا من الروح والقلب، والقوّة المفكرة، والنية والجوهر الداخلي، إضافة إلى العلاقات المتبادلة مع الآخرين"[٧].

---

(١) سورة: (المائدة)- من الآية: (٣٢).

(٢) سورة: " النازعات"- الآية: (٤٠).

(٣) يراجع: "الإنسان في القرآن الكريم"- عباس محمود العقاد: (ص: ٣٠- ٣٣) - ط. دار الهلال- ١٩٧١م.

(٤) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ يوسف: ٥٣

(٥) في قوله عز وجل: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ القيامة: ٢

(٦) في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ الفجر: ٢٧ - ٢٨

(٧) "الشخصية من منظور نفسي إسلامي"- د/ شادية أحمد التل- أستاذ علم النفس التربوي- جامعة اليرموك: (ص: ١٧) ط. دار الكتاب الثقافي – الأردن – ٢٠٠٦م.

المبحث الأول

التعريف بصفات الله -تعالى-، وبيان بعض مظاهر قدرته -ﷻ-، وأثر ذلك في تربية النفس الإنسانية:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾ [1]

افتتحت السورة الكريمة ببيان أن الكون بكل ما فيه يسبح لله -عز وجل- قال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، بمعنى: مجد الله ونزهه عن السوء[2] جميع ما في السماوات والأرض بلسان الحال والمقال، ويدل على ذلك قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [3]، وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[4]، وقوله ﷻ: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [5]، والكون بكلّ ما فيه

---

(١) سورة: (الحديد)- الآيات: ١ – ٦.
(٢) "الجامع لأحكام القرآن"- القرطبي: (١٧/ ٢٣٥).
(٣) سورة: (الإسراء)- من الآية: ٤٤.
(٤) سورة: (النور)- الآية: ٤١.
(٥) سورة: (الأنبياء)- من الآية: ٧٩.

خاضع بالعبودية لله -عز وجل- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾[١]، ويقول ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[٢]، وغير ذلك الكثير من الآيات.

بل إن السماء والأرض تبكيان لموت المؤمن، و ذلك لفقدهما مشاركته لهما في عبادة الله تعالى، بينما لا تتأثران لموت الكافر ولا تكترثان لأمره؛ قال تعالى حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٣] ؛ ذلك أنه لم يكن لهم عمل صالح يَصعْد إلى الله، فتبكي عليهم السماء، ولا مسجد في الأرض، فتبكي عليهم الأرض. أخرج ابن جرير بسنده عن سعيد بن جُبير، قال: أتى ابن عباس رجل، فقال: يا ابن عباس أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكى عليه، وإذا فقده مُصَلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض.[٤]

وفي هذا المعنى يبين النبي ﷺ مشاركة جبل (أُحُد) للمسلمين في مشاعر الحُبّ، فيقول ﷺ: **{أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ }**[٥].

---

(١) سورة: (الحج)- من الآية: ١٨.
(٢) سورة: (النحل)- الآية: ٤٩.
(٣) سورة: (الدخان)- الآية: ٢٩.
(٤) "جامع البيان"- ابن جرير الطبري: (٢٢/ ٣٤) ت: أحمد محمد شاكر- ط. مؤسسة الرسالة- الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
(٥) "صحيح البخاري": (٤/ ١٦١٠)- كتاب: المغازي- باب: "نزول النبي ﷺ الحجر"- رقم: (٤١٦٠)، "صحيح مسلم": (٢/ ١٠١١) كتاب: "الحج"، باب: "أحدٌ جبل يحبنا ونحبه"- رقم: (١٣٩٢). ت: محمد فؤاد عبد الباقي- ط. دار إحياء التراث العربي- بيروت.

فليس على الإنسان إذن إلا أن يأخذ مكانه بين صفوف هذا الكون المسبح الخاضع لله ﷻ، وهكذا يشعر المؤمن بالانسجام التام، والارتباط المتبادل بينه وبين الوجود من حوله، وهذا الشعور – في حدّ ذاته- يصل بالمؤمن إلى راحة نفسية لا يشوبها أي قلق أو اضطراب تجاه أي شيء في هذا الوجود.

وقد بين القرآن الكريم في موضع آخر أن التسبيح يساعد المؤمن على التخلص من ضيق الصدر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [١]، كما أنه يساعد المؤمن على الصبر، يصل به إلى الرضا النفسي؛ قال سبحانه: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [٢].

إن الذكر هو مصدر السعادة والطمأنينة، يجعل المؤمن يشعر بأنه في حماية ربّه ورعايته، ويبعث في نفسه السكينة والأمان، ويعينه على أن يحافظ على اتزانه دائمًا، ويحرره من القلق الذي قد يصيبه في مواجهة ضغوط الحياة، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [٣]، ويقول -عزّ وجلّ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [٤].

ثم شرعت السورة الكريمة بتعداد صفات الله -عز وجل- الدالة على عظمته وهيمنته على الكون بجميع ما فيه، فبدأت بصفتي: (العزيز الحكيم) قال جل ذكره: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

"أصل(ع ز ز) فِي الْكَلَام: الْغَلَبَة والشدة وَيُقَال عزني فلَان على الْأَمر إِذا غلبني عَلَيْهِ وَقَالَ الله تَعَالَى ذكره: ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [٥]، أَرَادَ -وَالله أعلم-: قوينا

---

(١) سورة: (الحجر)- الآيتان: ٩٧ – ٩٨.
(٢) سورة: (طه)- الآية: ١٣٠.
(٣) سورة: (طه)- من الآية: ١٢٤.
(٤) سورة: (الرعد)- من الآية: ٢٨.
(٥) سورة: (يس)- من الآية: ١٤.

أمره وشددناه، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴾[١]، أَرَادَ: غلبني، وَيُقَال: عزّه يعزه، وَالله تَعَالَى هُوَ الْغَالِب كل شَيْء، فَهُوَ الْعَزِيز الَّذِي ذلّ لعزته كل عَزِيز"[٢].

"والعزيز: اسم محبب إلى النفس؛ لأن كل ما يحبه الإنسان ويؤثره على غيره ويحرص عليه يصفه بأنه عزيز، ومعلوم أنه ليس هناك أعز من الذي يملك ولا يُملَك، ويعطي ولا يُعطَى، ويقدر على كل شيء ولا يحيط به أو يقدر عليه شيء، فهذا هو العزيز حقًا، وكل عزيز دونه فمجاز، ولا تكون عِزّةٌ إلا منه، وصدق الله العظيم:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾[٣]، فهو سبحانه مانح العزة على الحقيقة، وصدق الله العظيم: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[٤]، وهذا حثٌّ على طلب العزة من الله، والإقبال على عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد"[٥].

"والحكِيمُ: العالم وصاحب الحكمة، والحكيم أيضا: المتقن للأمور ".[٦]

"أما حظ العبد من هذا الاسم الكريم فهو أن يؤثر ما عند الله على حظ نفسه وهواه، وأن يأخذ من العاجلة بقدر، وأن يجعل همه وهمته في الآخرة؛ لأنها الخلود والمستقر، وأن يتعلم من دنياه ما يوثق صلته بمولاه، وأن يعمل عملًا متقنًا وأن يحتسبه عند الله؛ لأنه هو الذي أمر، وأن يثق في وعد ربه، فإن من

---

(١) سورة: (ص)- من الآية: ٢٣.

(٢) "تفسير أسماء الله الحسنى" أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) - ص: (٣٣، ٣٤).المحقق: أحمد يوسف الدقاق – ط. دار الثقافة العربية.

(٣) سورة: (النساء)- الآية: ١٣٩.

(٤) سورة: (المنافقون)- من الآية: ٨.

(٥) "روضات المتقيين في الأسماء التسعة والتسعين" د. عبد الفتاح عثمان إبراهيم- ص: (٥٠) ط. مكتبة التركي- طنطا- ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م.

(٦) مختار الصحاح" محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي: (ص: ١٦٧) - ط. مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٤١٥ – ١٩٩٥-تحقيق: محمود خاطر.

عمل الخير لا بد وأن يقطف الثمر"[١].

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾

أي: "له التصرف الكلي فيهما، وفيما فيهما من الموجودات من حيث الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات"[٢]، "فالملك الحق هو الذي يستغني في ذاته، وفي جميع صفاته عن كل ما عداه، ويحتاج كل ما عداه إليه في ذواتهم وفي صفاتهم"[٣].

وهكذا تُزيد الآيات المؤمن إيمانًا ويقينًا بالله عز وجل- فمن عرف أن الله الذي يسبح له جميع ما في السموات والأرض، والذي ذلَّ كل شيء لعزته، والحكيم في صنعه وتدبيره، ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يتصرّف فيهما وفيما فيهما من الموجودات كيف يشاء، بيده الإحياء والإماتة، بل بيده القدرة على كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ عرف أن كل ما سوى الله مخلوق له -سبحانه- خاضع لملكه وسلطانه، مفتقر إليه، لا يملك من أمر نفسه شيئًا، فلا يسأل أحدًا سواه، ولا ينُزل حاجته إلا به، ولا يخضع إلا له، ولا يلجأ إلا إليه؛ لأنه وحده ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وفي هذا تربية ساميةٌ لنفس المؤمن وتزكية بالغة لروحه.

ثم تواصل الآيات التعريف بصفات الله -ﷻ- يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

ومعنى وصف الله تعالى بأنه أول: "أنه متقدم للحوادث بأوقات لا نهاية لها، فالأشياء كلها وجدت بعده وقد سبقها كلها"[٤]، "وهذا الوصف يستلزم صفة الغِنَى المطلق، وهي عدم الاحتياج إلى المخصِّص، أي مخصص يخصصه بالوجود

---

(١) "روضات المتقين في الأسماء التسعة والتسعين": (ص: ١٩٨).

(٢) "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"- محمود الألوسي: (٢٧/ ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣) "مفاتيح الغيب" فخر الدين الرازي: (٢٩/ ١٨١) ط. دار الكتب العلمية- بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م.

(٤) " تفسير أسماء الله الحسنى" – الزجاج: (ص: ٦٠).

بدلاً عن العدم، لأن الأول هنا معناه الموجود لذاته دون سبق عدم"[١].

وأما وصف ﴿ الآخر ﴾ فمعناه: أنه "المتأخر عن الأشياء كلها، وأنه يبقى بعدها"[٢].

فهو سبحانه الدائم الباقي بعد فناء الخلائق، فهو قبل كل شيء، وبعد كل شيء، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[٣]، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[٥].

﴿ وَٱلظَّٰهِرُ ﴾: إما من الظهور -الذي هو ضد الخفاء-، والمعنى: ظهور وجوده بآياته الظاهرة، وظهوره للعقول بحججه الباهرة، وأدلة وحدانيته الوافرة. أو: من الظهور -بمعنى الغلبة-، فيكون معناه أنه سبحانه الغالب. [٦]

﴿ وَٱلْبَاطِنُ ﴾: "قيل: معناه أنه علِم السرائر والخفيات كما علِم كل ما هو ظاهر الخلق، وقيل: هو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصر ولا يحيط به وهم" [٧]، قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [٨]

"فهو سبحانه الظاهر بدلائله وأفعاله، الباطن بلطفه وجماله، الظاهر بنعمته،

---

(١) "التحرير والتنوير"- محمد الطاهر بن عاشور: (١١/ ٣٦٠)- ط. دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م.
(٢) " تفسير أسماء الله الحسنى": (ص: ٦٠).
(٣) سورة: (القصص)- من الآية: ٨٨.
(٤) سورة: (مريم)- الآية: ٤٠.
(٥) سورة: (الرحمن)-الآيتان: ٢٦ – ٢٧.
(٦) يراجع: "التحرير والتنوير": (١١/ ٣٦٢).
(٧) "لسان العرب"- ابن منظور: (١٣/ ٥٢) ط. دار صادر – بيروت.
(٨) سورة: (الأنعام)- الآية: ١٠٣.

الباطن برحمته"[١].

ولشرف هذه الصفات وجلالها كان النبي -ﷺ- يناجي بها ربّه -ﷻ- في دعائه، فيقول: **{ اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ }**[٢].

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

إنه مع عزّته وحكمته، وقدرته المطلقة، وملكه الحقيقي لجميع ما في السموات والأرض، وغناه المطلق، وبقائه الدائم؛ ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾،أجل.. ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾؛ مهما دقّ أو عظُم، مهما صغُر أو كبُر.. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾.. همُّ الإنسان وحَزَنُه، غمُّه وكربه، خوفه وقلقُه، مرضه وعجْزُه، وجَعُه وألمُه، ضعفه وفقرُه.. فالإنسان إذن ليس مضطّرا إلى كثير كلامٍ، أو سرد تفاصيلٍ حتى يُعلم ربَّه بحاجته، أو يوضّح له معاناته وآلامه؛ ذلك أن الله ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾؛ يعلم السر وأخفى، ﴿عَلِيمٌ ﴾ بما كان وما يكون وما لا يكون، ﴿عَلِيمٌ ﴾ بكلّ ما تحويه الكلمة من كل معاني المبالغة والإحاطة.

"فعلى العبد المسلم إذن أن يستمدّ الخير من ربه، وأن يثق في رحمته وقُربه، فهو العليم لا تخفى عليه خافية، ولا تغرُب عنه قاصية ولا دانية، فإذا عرف العبد ذلك صبر على بليّته، وشكر على عطيّته، وتاب عن ذنبه وخطيئته" [٣].

---

(١) "لوامع البينات- شرح أسماء الله تعالى والصفات"- فخر الدين الرازي: (ص: ٢٤١) ط. المطبعة الشرفية- مصر- الطبعة الأولى- ١٣٢٣ هـ.

(٢) "صحيح مسلم": (٤/ ٢٠٨٤) برقم: (٢٧١٣)- كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

(٣) "روضات المتقين": (ص: ٩٨).

قولـه تعـالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾[١].

تواصل الآيات بيان الدلائل على قدرة الله تعالى ووحدانيته، وعظمته، وسعة علمه، فتبين أنه -عز وجل- خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، استواءً يليق بجلاله، بلا كيف، ولا تمثيل، ولا تشبيه، على خلاف بين المفسرين في هذه الأيام؛ هل هي ستة أيام من أيام الدنيا، أم هي أيام غير أيامنا المعروفة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[٢]؟ وأيًّا ما كان فالظاهر أنها أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى -.

وفي هذا توجيه للإنسان أن يتأنّى في كل أموره ولا يتعجل، فإنه تعالت عظمته قادرٌ على خلق السماوات والأرض في لحظة واحدة، فهو سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾[٤]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾[٥].

يقول القرطبي - رحمه الله في تفسيره: "وذَكَرَ هذه المدة، ولو أراد خلْقها في لحظة لفعل ؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون. ولكنه أراد أن يُعلِّم العباد الرفق والتثبت في الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئا بعد شيء، وحكمة أخرى وهي أنه خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلا. وبيّن بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب"[٦].

---

(١) سورة: (الحديد)- الآية: (٤).
(٢) سورة: (الحج)- من الآية: ٤٧.
(٣) سورة: (البقرة)- الآية:١١٧.
(٤) سورة: (النحل)- الآية: ٤٠.
(٥) سورة: (القمر)- الآية: ٥٠.
(٦) "الجامع لأحكام القرآن"- القرطبي: (٧/ ٢١٩).

ومن الحكم التي ذكرها صاحب تفسير "زاد المسير" في ذلك: "أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[١]، ومنها: أنه علّم عباده التثبُّت، فإذا تثبت من لا يزلُّ، كان ذو الزّلل أولى بالتثبُّت. ومنها: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يُظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق"[٢].

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[٣]

تعود الآيات مرة أخرى لتؤكد على سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل حركةٍ وحدثٍ في الكون، فبعد أن بينت الآية السابقة أن الله -تعالى- بكل شيء عليم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾، ذكرت هذه الآية كل مراتب العلم، فبينت أنه -عزّوجل- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل في الأرض من مطر وأموات وكنوز وغير ذلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من زرع ونبات ونحو ذلك، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من رزق ومطر وملَك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد[٤]، كما في قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٥]، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾[٦].

وبعد هذا البيان لشمول علم الله تعالى لكل حركة في الأرض وفي السماء؛ تعود

---

(١) سورة: (البقرة)- من الآية: ١١٧.
(٢) " زاد المسير في علم التفسير" - عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: (٣/ ٢١٢) ط. المكتب الإسلامي – بيروت- الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
(٣) سورة: (الحديد)- من الآية: (٤).
(٤) "الجامع لأحكام القرآن": (١٧/ ٢٣٧).
(٥) سورة: (فاطر)- من الآية: ١٠.
(٦) سورة: (الأنعام)- الآية: ٥٩.

الآيات لتلفت انتباه الإنسان إلى نفسه هو، وتأخذ بمجامع قلبه، وتوضح له أن الله معه حيث كان، مطلَّعًا عليه، بصيرًا بأعماله، مراقبًا لكل تصرفاته، لا يخفى عليه شي منها، ولا يخرج عن علمه أينما كان؛ فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾، فهو سبحانه أقرب إلى الإنسان حتى من نفسه ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [(١)].

فإذا استشعر الإنسان أن الله معه حيث كان بحفظه ورعايته وحراسته ؛ كفاه هذا الشعور لكي يعيش في طمأنينة ورضًا واستسلام لقضاء الله تعالى، فلا يحزن ولا يفزع ولا يخاف.

وإذا علم أن الله معه حيث كان بقدرته وسلطانه وعلمه، وأنه سيجازيه على جميع أعماله؛ كفاه هذا العلم لكي يعيش في مراقبةٍ دائمةٍ لله -عز وجل- وحذرٍ مستمر، فلا يفعل شيئًا لا يرضى عنه الله، ولا يتجرأ على معصية نهى عنها الله، قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾[(٢)].

ولهذا لما سأل رجل النبيَّ ﷺ: ما تزكية المرء نفسَه يا رسول الله؟ قال: {**يَعْلَم أنَّ الله مَعَه حَيْثُ كَان** }[(٣)]، وسئل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: {**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**}[(٤)].

---

(١) سورة: (ق)- الآية: ١٦.

(٢) سورة: (البقرة)- من الآية: ٢٣٥.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث: عبد الله بن معاوية الغاضري، وقال عنه ابن الملقن رحمه الله: " جوده الطَّبَرَانِيّ ". يراجع: "شعب الإيمان" - البيهقي: (٣/ ١٨٧) ط. دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، "البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير"- سراج الدين بن الملقن: (٥/ ٤٥١)- ط. دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض- الطبعة: الاولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

(٤) "صحيح البخاري": (١/ ٢٧)- رقم: (٥٠)- كتاب الإيمان - باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة.

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ ﴾[١]

تؤكد الآية على المعاني التي ذكرتها الآيات السابقة، من نفوذ ملك الله وسلطانه وهيمنته على جميع ما في السموات وما في الأرض، فيقول تعالى: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، أي: له –لا لغيره- ملك السموات والأرض، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي: وإليه وحده ترجع أمور جميع الموجودات، فيقضي فيها بما أراد؛ لا راد لقضائه، ولا معقّب لحكمه، ولا يقع في ملكه غير ما أراد وقدَّر.

فإذا علم العبد أن مرجع كل أمر إلى الله؛ وكّل جميع أموره إليه، وسلّم له، لأنه تعالى ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾[٢]، وهو سبحانه ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥ ﴾[٣]، كما علم العبد أنه سيلقى جزاء عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فهو -سبحانه- لا يظلم مثقال ذرّة، و لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٤]، فهو سبحانه الخالق والمالك لكل شيء، القدير على كل شيء، المحيط بكل شيء علمًا، يقول سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢ ﴾[٥].

ولعلنا نلاحظ تكرار هذه العبارة: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لكنها في أول السورة ذكر بعدها أمور المبدأ من الإحياء والإماتة الواقعين في الدنيا بقوله تعالى: ﴿ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وهنا ذكر بعدها أمور المعاد بقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾، ذلك "لأن ملكية السموات والأرض كالمقدمة لهما؛

---

(١) سورة: (الحديد) – الآية: (٥).
(٢) سورة: (الرعد)- من الآية: ٢.
(٣) سورة: (مريم)- من الآية: ٣٥.
(٤) سورة: (هود)- الآية: ١٢٣
(٥) سورة: (الطلاق)- الآية: ١٢

لأن الإبداء والإعادة يتوقّفان على أن يكون القادر عليهما مالكًا لما في السموات والأرض، فإنّ مَن لَم يكن مالكًا لما فيهما؛ لا يكون مبدئًا ومعيدًا"[١].

ويقول الطاهر ابن عاشور: "هذا تأكيد لنظيره الذي في أول هذه السورة، كرر ليبنى عليه قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، فكان ذكره في أول السورة مبنيًّا عليه التصرفُ في الموجودات القابلة للحياة والموت في الدنيا، وكان ذكره هنا مبنيًّا عليه أن أمور الموجودات كلّها ترجع إلى تصرفه"[٢].

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾[٣]

تعرض الآية مظهرًا آخر من مظاهر قدرة الله تعالى، فهو سبحانه "المتصرف في الخلق يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعا ثم صيفا ثم خريفا، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه".[٤]

وهذه آية من آيات الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾[٥].

وبعد هذا التجوال في ذلك الكون الواسع بما فيه من أرضٍ وسماء، وليلٍ ونهار، وما فيه من حركاتٍ وسكنات، وولوجٍ وخروج، ونزول وعروج، تعود الآيات إلى الإنسان مرةً أخرى، فتلفت انتباهه إلى نفسه التي بين جنبيه، وتلامس شغاف قلبه، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فتُعلمُه بأنّ الله تعالى عليمٌ بما في صدره من أسرارٍ مستكنة فيه، وعليم بما في قلبه وضميره، يستوي عنده

---

(١) "حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي"- مصلح الدين مصطفى بن إبراهيم الرومي الحنفي المتوفى سنة ٨٨٠ هـ: (١٨/ ٤٤٠) ط. دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط. الأولى- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) "التحرير والتنوير": (٢٧/ ٣٦٥).

(٣) سورة: (الحديد) – الآية: (٦).

(٤) "تفسير القرآن العظيم" ابن كثير: (٨/ ١٠).

(٥) سورة: (يس)- الآية: (٣٧).

السّر والعلن، مصداق ذلك قوله تعالى في سورة الملك: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [١]، وقوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾[٢].

فعلى الإنسان إذًا أن يستعد لهذا اليوم الذي يرجع فيه إلى ربه -ﷻ- فيحاسبه على نيته وعمله، يقول تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾.[٣]

وليراقب الإنسان ربه الذي يعلم السّر وأخفى، فيعيش سليم الصدر، فلا يحمل حسدًا ولا حقدًا على أحد، ولا يضره ما يحمله غيره له من كره أو حقد، يقول تعالى مخاطبًا المؤمنين في شأن المنافقين الذين يُظهرون لهم الإيمان والمودة، وهم في الباطن بخلاف ذلك: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [٤].

وبهذا يصل الإنسان إلى السعادة عن طريق الحياة في سلامٍ داخلي مع نفسه، وسلامٍ خارجي مع كل من حوله، ولذلك امتن الله على المؤمنين في الجنة بأن نزع ما قلوبهم من بغضاء وشحناء، يقول تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ ﴾ [٥].

---

(١) سورة: (الملك)- الآية: ١٣.
(٢) سورة: (التغابن)- الآية: ٤.
(٣) سورة: (الزمر)- الآية: ٧.
(٤) سورة: (آل عمران)- الآية: ١١٩.
(٥) سورة: (الأعراف)- الآية: ٤٣.

المبحث الثاني

الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ، والإنفاق في سبيل الله، وأثر ذلك في تربية النفس الإنسانية

قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[1].

بعد أن بين الله تعالى في الآيات السابقة دلائل وحدانيته، وعظمته، وهيمنته على جميع خلقه، وعلمه بأحوالهم، ذكّرهم هنا بالإيمان به سبحانه، وبرسوله -ﷺ- بقوله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، والخطاب هنا عام يشمل المؤمنين والكافرين، فإذا كان للكافرين فالأمر بالإيمان ظاهر، وإن كان للمؤمنين فيكون المقصود بدعوتهم إلى الإيمان هو "الإيمان على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار عليه"[2]، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[3].

ثم بينت الآيات أن من مقتضيات الإيمان: الإنفاق مما جعل الله الإنسان خليفة فيه، فقال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ ﴾، "وقوله تعالى: ﴿ مُّسْتَخْلَفِينَ ﴾ اسم مفعول من الاستخلاف، بمعنى أن يخلف الإنسان غيره، أو أن يخلفه غيره من بعده"[4].

---

(١) سورة: (الحديد)- الآيات: ٧ – ١١.
(٢) "تفسير القرآن العظيم" – ابن كثير: (٨/ ١١).
(٣) سورة: (النساء)- من الآية: ١٣٦.
(٤) " التفسير الوسيط للقرآن الكريم" - د/ محمد سيد طنطاوي: (١٤/ ٢٠٢) ط. دار نهضة مصر- الفجالة- القاهرة- الطبعة: الأولى- ١٩٩٨م.

وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ ترغيب في الإنفاق، لأن الإنسان إذا علم أن ما بيده إنما هو ملك لله -عز وجل-، وأنه مجرد وكيلٍ عليه، وأنه مستخلف فيه، خلف هو غيرَه، و يخلفه غيرُه من بعده، هان عليه الإنفاق، ولم يبخل بشيء منه، ثم تزيد الآيات الإنسان ترغيبًا في الإيمان والإنفاق، فتصف أجر الإيمان والإنفاق بأنه أجرٌ كبير، يقول تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾، وللإنسان أن يتخيل ما شاء في هذا الأجر، فهو أكبر من أن تصل إليه مخيلته، كيف لا؛ وقد وصفه الله تعالى بأنه أجرٌ كبير.

وقد بين الله تعالى بعض هذا الجزاء في آيات أخر؛ فبين أنه -سبحانه- سيخلف عليه غيره كما في قوله تعالى: ﴿ ... وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [1]، وأنه سيوفيه أجره كاملًا دون أن يظلمه شيئًا؛ يقول تعالى: ﴿ ... وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [2].

ولا يخفى ما للإنفاق من أثرٍ بالغٍ في تربية النفس وتزكيتها، يقول تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [3]، وقال تعالى مخاطبًا نبيه -ﷺ-: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [4].

وحين يدعو القرآن المؤمن إلى الإنفاق؛ فإنه يعلّق قبول هذا العمل على الجانب النفسي للمنفِق، حيث بيّن الله -ﷻ- في آية أخرى أنه -سبحانه- لم يقبل النفقة ممن أنفقونها عن غير رضى وطيب نفس، قال تعالى:

---

(١) سورة: (سبأ)- من الآية: ٣٩
(٢) سورة: (البقرة)- من الآية: ٢٧٢
(٣) سورة: (التغابن)- الآية: ١٦
(٤) سورة: (التوبة)- من الآية: ١٠٣

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[1]، فحتى تؤدي الصدقة أثرها البالغ في نفس المؤمن من طهارةٍ وتزكيةٍ، فإنه لا بدّ أولًا من الإيمان بالله ورسوله، والامتثال لتعاليم الإسلام، والإنفاق عن رضىً وطيب نفسٍ، وحبٍّ للبذل والعطاء، ومن غير رياءٍ أو سمعةٍ.

كما أكّد الله -سبحانه- على أن عاقبة البخل وعدم الإنفاق إنما تعود على صاحبه بالسلب، وأنه -عز وجل- هو الغني عن كل من سواه، وأن كل من سواه مفتقرٌ إليه، بحاجة إلى نيل الأجر والثواب منه سبحانه؛ يقول تعالى:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

وقد أعلمنا الله –عز وجل- أن أكثر ما يتحسّر عليه الإنسان عند موته هو ترك الإنفاق مما رزقه الله، وأنه يتمنى أن يؤخَّر إلى أجل قريب فيتصدّق ويكونَ من الصالحين، يقول جلّ شأنه: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[3].

والظاهر أن الدعوة إلى الإنفاق إنما تكون بإنفاق المال في المصارف التي أمر الله -تعالى- بها، وهو الذي ذكره معظم المفسرين هنا في تفسير الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، إلا أنه يمكن القول بأن الآية لم تخصص ما هو الشيء الذي جعل الله -ﷻ- الإنسان مستخلفًا فيه وأمره بالإنفاق منه، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ ﴾، فيحصل بذلك أن الأمر بالإنفاق يكون على

---

(١) سورة: (التوبة)- الآية: ٥٤

(٢) سورة: (محمد)- الآية: ٣٨.

(٣) سورة: (المنافقون)- الآية: ١٠.

وجه العموم من كل شيء استخلف الله الإنسان فيه، فمن استخلفه الله على مالٍ فلينفق منه في مصارفه الشرعية التي حددها الله تعالى، ومن استخلفه الله على علمٍ فلينفق منه وذلك بتعليمه للناس وعدم كتمان شيء منه، ومن استخلفه الله على قوةٍ فلينفق منها، وذلك بمساعدة الضعفاء وإعانة من يحتاج إلى العون، ومن استخلفه الله على القضاء بين الناس فإنفاقه يكون بالعدل بين الناس، وهكذا كلٌ بحسب استطاعته ومقدرته، يقول تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾[١].

أخرج البخاري ومسلم -رحمهما الله- في صحيحيهما، عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **{كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ على دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يخطوها إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ}**[٢].

و أخرج الإمام مسلم -رحمه الله- عن أبي ذر ﷺ، أن ناسا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور[٣] بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: **{أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ...}**[٤].

وفي الصحيحين: عن النبي ﷺ قال: **{كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ }**[٥].

ثم تتساءل الآيات عن الأسباب التي من شأنها أن تمنع الإنسان عن الإيمان أو

---

(١) سورة: (الطلاق)- من الآية: ٧.

(٢) "صحيح البخاري": (٣/ ١٠٩٠) – كتاب: (الجهاد والسير)- باب: (من أخذ بالركاب ونحوه) - رقم: (٢٨٢٧)،"صحيح مسلم": (٢/ ٦٩٩) كتاب: (الزكاة)- باب: (بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) - رقم: (١٠٠٩).

(٣) الدثور: جمع دثر، وهو المال الكثير. "لسان العرب": (٤/ ٢٧٦)- مادة: (دثر).

(٤) "صحيح مسلم": (٢/ ٦٩٧) كتاب: (الزكاة)- باب: (بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) - رقم: (١٠٠٦).

(٥) "صحيح البخاري": (٥/ ٢٢٤١) كتاب: (الأدب)- باب: (كل معروف صدقة)- رقم: (٥٦٧٥)،"صحيح مسلم": (٢/ ٦٩٧) كتاب: (الزكاة)- باب: (بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) - رقم: (١٠٠٥).

عن الإنفاق، وكأنها تبحث معه عن المانع، مستخدمة أسلوب الخطاب مع الاستفهام، حتى لا تُبقي للإنسان أيّ حجة أو عذر في ترك الإيمان أو الإنفاق، فلم تأتِ الآيات بالأوامر وحسب، بل استخدمت أسلوب الإقناع الذي يصل بالإنسان العاقل إلى الامتثال لما أمر الله -تعالى- به عن قناعةٍ عقليّةٍ تامة، ورضًا نفسيٍّ كامل، وهذا أسلوب تربوي فريد سبق به القرآن الكريم كل وسائل التربية الحديثة.

فبدأت أولًا بالتساؤل عن المانع من الإيمان، بقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

والمعنى: وأي شيء يمنعكم من الإيمان، والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به؟[١]، وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان من قبل في عالم الذَّرّ حين أشهدكم على أنفسكم، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي: إن كنتم مستمرين على الإيمان الذي وثّقه معكم[٣].

والمعنى: "فما لكم لا تؤمنون بما يدعوكم إليه الرسول من إيمان، وهو إنما يدعوكم إلى هذا الإيمان الذي آمنتم به من قبل؟، وهذا يعنى أن دعوة الإسلام، هي دعوة تلتقى مع الفطرة التي فطر الناس عليها، وأن من يرفض هذه الدعوة أو ينكرها، فهو منحرف عن الفطرة، حائد عن طريقها.. "[٤].

ومن رأفة الله -تعالى- ورحمته البالغة بعباده أن أعاد دعوتهم إلى الإيمان مرةً أخرى بأسلوب آخر، فامتنّ عليهم بأنه ينزل على عبده ونبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- آياتٍ بَيِّناتٍ واضحات الدلالة، ليخرجهم من ظلمات الكفر

---

(١) "تفسير القرآن العظيم" -ابن كثير: (٨/ ١١).
(٢) سورة: (الأعراف)- من الآية: ١٧٢.
(٣) يراجع: "جامع البيان"- ابن جرير الطبري: (٢٣/ ١٧٢).
(٤) "التفسير القرآني للقرآن"- عبد الكريم يونس الخطيب: (١٤/ ٧٥٢) ط. دار الفكر العربي – القاهرة.

والجهل، إلى نور الإيمان والعلم، فيقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ ﴾، أي: وإن الله -سبحانه- بكم لكثير الرأفة والرحمة، فهو يخاطبهم خطاب الرؤوف الرحيم بهم؛ هذا الخطاب المؤكَّد بألوان متعددة من المؤكِّدات، التي لا تدع مجالًا للشكِّ من العبد في إرادة ربّه الخير له، والرحمة به، فهو أرحم به من نفسه، حيث يدعوه إلى الإيمان المتوافق مع فطرته بأساليب شتّى تخاطب عقله ووجدانَه، فكيف يعرض العبدُ عن الإيمان بربه بعد ذلك كلّه؟!

ثمّ تتساءل الآيات سؤالًا إنكاريًّا آخر -على سبيل العتاب -عن السبب الذي من شأنه أن يمنع من الإنفاق؛ بحيث لا تُبقي لهم عذرًا في ذلك أيضًا، فيقول تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾؛ أي: وأيّ شيءٍ لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله، في حين أن الله -تعالى- له ميراث السموات والأرض، وإليه يعود ما في أيديكم؟، و نحوُ هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

بعد ذلك بيّنت الآيات "تفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق، بعد أن بينت أن لهم أجرًا كبيرا على الإطلاق، حثًّا لهم على تحري الأفضل"[2]، فقال تعالى: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ ﴾،

والمقصود بالفتح هنا: فتح مكة، وإنما كان ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل أعظم ممن فعل ذلك بعد الفتح؛ "لأنهم فعلوا ما فعلوا من الإنفاق والقتال قبل عِزَّة الإسلام وقوة أهله، وعند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال.

والمراد بمن أنفق من قبل الفتح هنا: هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي -ﷺ: **{ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ**

---

(١) سورة: (مريم)- الآية: ٤٠.

(٢) "إرشاد العقل السليم"- أبو السعود: (٨/ ٢٠٦)- ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.

أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ(١)، وَلَا نَصِيفَهُ }(٢) ". (٣)

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: "وكل واحد من الفريقين -يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده- كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء"(٤).

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

"الخبير: هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، فلا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرّة ولا تسكن، ولا تضّطرب نفس ولا تطمئن؛ إلا ويكون عنده خبرها، وهو بمعنى العليم، ولكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، ويسمى صاحبها خبيرا".(٥)

فلخبرته -سبحانه- وعلمه بأعمال عباده الظاهرة ونيّاتهم الباطنة؛ "فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل هذا بعد ذلك، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق. وفي الحديث: **{سبق درهم مائة ألف}**(٦) ".(٧)

---

(١) المُدّ: ضرب من المكاييل وهو في الأصل ربع صاع، وإنما قدّره به لأنه أقل ما كانوا يتصدقون به في العادة، وقيل: إن أصل المد مقدّر بأن يمد الرجل يديه فيملأ كفيه طعاما. "لسان العرب": (٣/ ٣٩٦)- مادة: (مدد).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٣/ ١٣٤٣)- كتاب: (فضائل الصحابة)- باب: (قول النبي ﷺ: { لو كنت متخذا خليلا} -رقم: (٣٤٧٠)، ومسلم في صحيحه: (٤/ ١٩٦٧) كتاب: (فضائل الصحابة)- باب: (تحريم سب الصحابة ﷺ)_ رقم ٢٥٤٠.

(٣) "إرشاد العقل السليم": (٨/ ٢٠٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم"- ابن كثير: (٨/ ١٣).

(٥) "المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى"- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: (ص: ١٠٣) ط. الجفان والجابي – قبرص- الطبعة الأولى- ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

(٦) أخرجه النسائي في السنن من حديث أبي هريرة -ﷺ-. يراجع: "سنن النسائي": (٥/ ٦٢) كتاب: (الزَّكاة)- باب: (جهد المقل) برقم: (٢٥٢٦) -ت: مكتب تحقيق التراث- ط. دار المعرفة ببيروت- الطبعة: الخامسة ١٤٢٠هـ، والبيهقي في "السنن الكبرى": (٨/ ١٨١) - رقم: (٨٠٣١)- ط. مجلس دائرة المعارف النظامية- حيدر آباد- الهند - الطبعة: الأولى - ١٣٤٤ هـ.

(٧) تفسير القرآن العظيم"- ابن كثير: (٨/ ١٤).

فيجب على الإنسان أن يعلم أن الله خبيرٌ بخبايا نفسه، مطّلعٌ على مكنون قلبه، مراقبٌ لخَلجات ضميره، فيُري ربّه من نفسه خيرًا، ويتحرّي الأفضل في نيّته وعمله قدر استطاعته، كما قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

تهتف الآيات بقلب المؤمن مرةً أخرى هتافًا أخّاذًا، داعيةً إياه إلى الإنفاق في سبيل الله، بحيث يحتسب بإنفاقه وجه الله -تعالى- وحده، من غير رياءٍ أو سمعة، ومن دون مَنٍّ أو أذى، بأسلوب الاستفهام التشويقي الذي غرضه التحفيز والإغراء والترغيب، فوعَدَ الله -سبحانه- من ينفق في سبيله محتسبًا، بأنه يضاعف له الأجر والثواب أضعافًا مضاعفة، ﴿ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ - بالإضافة إلى مضاعفة الثواب- وهو الجنة، فكيف يُعرض المؤمن عن هذا النداء من ربّه الكريم؟

يقول صاحب الكشاف: "القرض الحسن: الإنفاق في سبيله. شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز، لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنه أقرضه إياه، ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفا"[٢].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[٤].

وقد أكّد علماء النفس التربوي قيمة الثواب، وأثره في تحفيز الإنسان وتشجيعه على معاودة الأفعال التي يثاب عليها، إذ أنّ السرور الذي يحصل في

---

(١) سورة: (التغابن)- من الآية: ١٦.
(٢) " الكشاف"- الزمخشري: (٤/ ٤٧٣).
(٣) سورة: (البقرة)- من الآية: ٢٤٥.
(٤) سورة: (التغابن)- الآية: ١٧.

نفسية المثاب يكون دافعًا قويًّا له على ذلك، وبهذا فإن أسلوب الثواب يحقق نتائج تربوية إيجابية أفضل من تلك التي يحققها أسلوب العقاب[١] .

وهذه الآيات تُعَدُّ دليلًا أكيدًا على سبق القرآن الكريم بمنهجه التربوي لكل نظريات علم النفس الحديث؛ لأنه تنزيل من حكيم خبير بخبايا النفوس، وما فيها من علل وأمراض، عليم بما يصلحها وما فيه شفاؤها وصحتها.

---

(١) يراجع: "أسس التربية النفسية في السنة النبوية"-د/ عبد الحميد الصيد الزناتي - ص: (١٧٦).

المبحث الثالث

عرض بعض مشاهد يوم القيامة، وأثره على النفس الإنسانية

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

هنا تعرض لنا الآيات مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يكون فيه هذا الأجر الكريم من الله -تعالى- للمؤمنين والمؤمنات، وتُصوّر لنا المشهد تصويرًا حسّيًّا، وكأننا نراه رأي العين، فيقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾، أي: "يتحرك نورهم معهم من أمامهم، ومن جهة يمينهم، على سبيل التشريف والتكريم لهم، واقتصر على ذكر الأيْمان على سبيل التشريف لتلك الجهة، والمراد أن نورهم يحيط بهم من جميع جوانبهم"[2].

أخرج ابن جرير عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه- قال: "يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نورًا على إبهامه يطفأ مرة ويُقدُ مرة"[3].

وكأن هذا النور الذي يكون للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة، هو على قدر اتّباعهم لمنهج الله -تعالى- في الدنيا، وعملهم بآياته البيّنات التي أنزلها على رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم - ليخرجهم بها من الظلمات إلى النور،

---

(١) سورة: (الحديد)- الآيات: ١٢ – ١٥.

(٢) "التفسير الوسيط": (١٤/ ٢٠٩).

(٣) "جامع البيان "- محمد بن جرير الطبري: (٢٣/ ١٧٩).

والذي سبقت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[1].

ثم تُزيد الآيات تصوير المشهد للمخاطب، وكأنه حاضرٌ بنفسه يرى ويسمع، حين يقال للمؤمنين والمؤمنات: ﴿ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾، ولم تحدد الآيات من القائل لهم ذلك، بل ذكرت هذا القول الذي يقال لهم مباشرة، وجاءت به بصيغة الخطاب ﴿ بُشۡرَىٰكُمُ ﴾، وحددته بـ ﴿ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ الذي يقال فيه – وهو يوم القيامة-، فالمخاطب يعيش معهم تلك اللحظة بكل ما فيها من تفاصيل، ويشهد معهم ذلك الموقف بكل ما فيه من أحداث، ويسمع بنفسه كلَّ ما يقال في هذا اليوم دون حاجةٍ إلى نقل كلام من أحدٍ.

ولم ينتهِ المشهد-بعد- ببيان موقف المؤمنين والمؤمنات يوم القيامة، الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، بل امتدّ لبيان موقف مَن هم في المقابل من ذلك، وهم المنافقون والمنافقات الذين لم يجعل الله لهم نورًا، فقال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

فهذا بيان أنه لا نجاة في هذا اليوم العظيم إلا بالإيمان بالله ورسوله ﷺ، واتباع النور الذي أنزل معه، والعمل بما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

و﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ ﴾: هم الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، يقولون ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ في هذا اليوم -على سبيل التذلل والتحسر-: ﴿ ٱنظُرُونَا ﴾، أي:

---

(١) سورة: (الحديد)- من الآية: ٩.
(٢) سورة: (الحديد)- الآية: ١٣.

انتظرونا ﴿ نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ أي: نُصِب منه، فنلحق بكم، فنستنير به، وذلك لما هم فيه من الظلمة التي لا يستطيعون معها السير، ﴿ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا ﴾ أي: ﴿ قِيلَ ﴾ لهم على سبيل التهكم والاستهزاء، إذ لا سبيل إلى الرّجوع: ﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا ﴾[1].

لم تصرِّح الآية هنا بالقائل لهم ذلك؛ إذ الفعل ﴿ قِيلَ ﴾ بصيغة البناء للمجهول.

ولعل هذا القول من الملائكة تهكما، "إذ لا نور وراءهم، وإنما أرادوا إطماعهم ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة. وهذا الاستهزاء كان جزاءً على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم، فهو من معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ ﴾[2]"[3].

ويحتمل أن تكون هذه المقالة من المؤمنين على سبيل التهكم أيضًا، والمعنى: " ارجعوا وراءكم حيث الموقف الذي كنا واقفين فيه فالتمسوا منه النور، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورا، عن طريق تحصيل سببه وهو الإيمان والعمل الصالح، أو ارجعوا خائبين فلا نور لكم عندنا"[4].

وهنا تحسم الآيات الموقف، فتعرض للمخاطب مشهدًا هائلًا لسورٍ عظيم، يُضرب بين المؤمنين والمنافقين، فاصلًا وحاجزًا بينهم، هذا السور الكبير له باب، باطنه مما يلي المؤمنين فِيهِ الرَّحْمَةُ، وظاهره مما يلي المنافقين مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ، ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾.

---

(١) يراجع: "روح المعاني" – الألوسي:(٢٧/ ١٧٧)، " التفسير الوسيط"-: (١٤/ ٢١٠).
(٢) سورة: (التوبة)- من الآية: ٧٩.
(٣) "التحرير والتنوير" – ابن عاشور: (٢٧/ ٣٨٣).
(٤) "التفسير الوسيط": (١٤/ ٢١٠).

قولـه تعـالى: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

وإذا بالمخاطب يسمع صوت نداء المنافقين للمؤمنين، سائلين لهم: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾، أي: ألم نكن معكم في الدنيا فنلحق بكم وننضمّ إليكم، كما كنا معكم في الدنيا نشارككم في أعمال الإسلام من نطقٍ بكلمة الإسلام وإقامةٍ للعبادات، نصلي معكم الجماعات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟!

يقول ابن عاشور معقبًا على ذلك: "توهموا أن المعاملة في الآخرة تجري كما تجري المعاملة في الدنيا على حسب صور الأعمال، وما دروا أن الصور مكمّلات، وأن قوامها إخلاص الإيمان"(١).

فأجيبوا بما يرفع توهّمهم من أن الموافقة للمؤمنين في أعمال الإسلام، تكفي في التحاقهم بهم في نعيم الجنات، فبينوا لهم أسباب التباعد بينهم بأن باطنهم كان مخالفا لظاهرهم، يقول تعالى: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾.

"ذكروا لهم أربعة أصول هي أسباب الخسران، وهي: فتنة أنفسهم، والتربص بالمؤمنين، والارتياب في صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والاغترار بما تموه إليهم أنفسهم. وهذه الأربعة هي أصول الخصال المتفرعة على النفاق"(٢).

﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ نعم، كنتم معنا في الظاهر، ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق، وعدم قرار ضمائركم على الإسلام، واتباعكم اللذات والمعاصي والشهوات.

﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾: تربصتم بالنبي ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر.

---

(١) "التحرير والتنوير:(٢٧/ ٣٨٥).
(٢) "المرجع السابق": نفس الجزء والصفحة.

﴿ وَٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾: شككتم في أمر الدين، وفي الحق الذي جاءكم به الرسول -ﷺ-، و في البعث بعد الموت.

﴿ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ ﴾ أي: وغرّكم ما تمنّون به أنفسكم من الباطل، وأنه سيكون لكم مثل ما للمؤمنين من الجزاء.

﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ وهو قضاؤه لكم بالموت، وأنتم على تلك الحال من: فتنكم أنفسكم، وتربصكم، وارتيابكم، واغتراركم بالأمانيّ الباطلة.[١]

﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ وغرّكم الشيطان بعفو الله ورحمته.

عن قتادة، قال: "كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار"[٢].

وهكذا يوضح القرآن الكريم بدقّة السمات المتعددة لشخصية المنافقين، من التردد والشك والكيد والحقد والكراهية وإثارة الفتن، والتي أدّت بهم إلى هذه النهاية المؤلمة، فتبين الآيات جزاءهم بقوله تعالى:

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾

أي: فاليوم لا يقبل منكم ما تفتدون به أنفسكم، ولا من الذين كفروا أيضًا.

ساوى بينهم وبين الكافرين، ليؤكّد على أنّ إظهارهم الإسلام في الدنيا لم يكن لينفعهم، لأنهم إنما كانوا يبطنون الكفر، ويشكون في أمر الدّين، ويتربّصون بالنبي ﷺ، وبالمؤمنين الدوائر، فليسوا بأفضل حالٍ من الكافرين.

وإذا لم يُقبل منهم فدية، فليس ثَمّة جزاء لهم إلا النار، ﴿ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ ﴾ أي: "هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم"[٣]، ﴿ وَبِئۡسَ

---

(١) يراجع: "تفسير القرآن العظيم"- ابن كثير:(٨/ ١٦)، "الجامع لأحكام القرآن"- القرطبي: (١٧/ ٢٤٥)، "التحرير والتنوير: (٢٧/ ٣٨٦)، "صفوة التفاسير" محمد علي الصابوني: (٣/ ٣٠٦) ط. دار الصابوني- القاهرة-الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

(٢) "جامع البيان"- الطبري: (٢٣/ ١٨٥)، "تفسير القرآن العظيم"- ابن كثير: (٨/ ١٨).

(٣) "تفسير القرآن العظيم": (٨/ ١٩).

ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾

وهنا.. تترك الآيات المشهدَ بكلِّ تفاصيله، وما فيه من مواقف وأحداثٍ بين يدي المخاطب، ليتأمل في مآل كل فريق من الفريقين، وليراجع نفسه، ثم يحكم ويختار لنفسه الفريق الذي يودّ أن يكون معه، فلم تأتِ السورة بالأوامر والنواهي وحسب ثم تَكِلُ الإنسان إلى نفسه وضميره، بل تهز السورة قلب المؤمن هزًّا، وتخاطب عقله ووجدانه، وتُنوّع في أساليب التربية وطرق الإقناع، وتعرض مشاهد حسّيّة، وصورًا واقعية، ومقارناتٍ بين المتناقضين، تكفي لأن يختار الإنسان لنفسه ما يريده هو من خيرٍ أو شرٍّ...

المبحث الرابع

الترغيب في الرجوع إلى الله -تعالى-، وخشوع القلب لأوامره، وبيان جزاء المؤمنين والمصدِّقين، وأثر ذلك على النفس الإنسانية

يقول تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾[1]

بعد أن بينت الآيات حال المنافقين والكافرين، واغترارهم بالدنيا وبالأماني الباطلة، والجزاء الذي أعدّه الله لهم، تأت الآيات بهذا العتاب الرقيق من الله -تعالى- لبعض المؤمنين الذين فَتُرَت همَّتُهم قليلاً عن القيام ببعض ما كانوا عليه، عتابًا يلامِس شغاف قلوبهم، مسائِلًا إياهم: أما آن لهذه القلوب أن تخشع وتلين لذكر الله وما نزل من الحق وهو -القرآن الذي جاءهم به على لسان رسوله ﷺ-، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه؟ ومنبّهًا إيّاهم ومحذّرًا من أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، في قسوة قلوبهم بعد طول الزمن بينهم وبين أنبيائهم، واستيلاء المطامع والشهوات على قلوبهم، فبدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنا قليلا، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فصارت كالحجارة أو أشد قسوة، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد، ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ؛ أي: خارجون عن طاعة الله، متمرّدون على أوامره، من فرط قسوة قلوبهم [2].

وبعد هذا العتاب من الله -تعالى- لعباده المؤمنين، وحثّهم على خشوع قلوبهم

---

(١) سورة: (الحديد)- الآيات: (١٦ – ١٩).

(٢) يراجع: "تفسير القرآن العظيم"- ابن كثير: (٨/ ٢٠).

لذكر الله وما نزل من الحق، تأتي هذه الآية لتفتح باب الرجاء للمؤمنين، حتى لا ييأسوا من روح الله، فتُعلمهم (أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، وليس المراد الإخبار بذلك على الحقيقية، فهذا أمر لا يجهله مؤمن، وإنما هو إشارة إلى أن الله يحيي القلوب بالذكر كما يحيي الأرض المجدبة بالمطر.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: "وقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فيه إشارة إلى أنه-تعالى- يلين القلوب بعد قسوتها، ويَهدي الحَيَارى بعد ضَلتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل؛ كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفِعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال"[١].

وقال الفخر الرازي: "وفيه وجهان: الأول: أنه تمثيل، والمعنى: أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة فالمواظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع إليها، كما يحيي الله الأرض بالغيث. والثاني: أن المراد بعث الأموات، فذكر ذلك ترغيباً في الخشوع والخضوع وزجراً عن القساوة"[٢].

فإذا علم الإنسان أن الله -عزّ وجل- سيقبل توبته إذا رجع إليه، ويغفر ذنبه، ويخرجه من الضلال إلى الهداية؛ تحرر من دائرة الشعور بالذنب، وجلد الذات الذي قد يُدمّر حياته، ويجعله يظنّ أنه قد هلك وخسِر كل شيء، وأن باب الأمل قد أغلق في وجهه، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى رحمة الله -تعالى- ومغفرته، وأنه لا رجاء في الحياة مرةً أخرى، مما يصيبه بالاكتئاب والإحباط، وترك العمل، "لأن الشيطان يُهَّون الذنب قبل فعله، فإذا أوقع فيه ابن آدم عظَّمه في عينيه وقلبه حتى يؤيّسه من رحمة الله"[٣]، والاستسلام لهذا الشعور يجعله يعيش

---

(١) ابن كثير: (٨/ ٢١)، ويراجع: "الكشاف" للزمخشري:

(٢) "مفاتيح الغيب" - فخر الدين الرازي: (٢٩/ ٢٠١) ط. دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م.

(٣) "التأصيل النفسي للدراسات النفسية- البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي"- محمد عز الدين توفيق: (ص: ٣٩٨) – ط. دار السلام- القاهرة- ط. الثانية- ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

في ظلامٍ دامس لا يستطيع الخروج منه، فيشبه حاله حال الموتى. مصداق ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (١).

إن التوبة تمنح المؤمن السلام النفسي والطمأنينة الروحية، وتطهّر روحه من أدران المعاصي والذنوب، وتمنحه القدرة على مواجهة الأزمات النفسية، وتدفع عنه القلق والتوتر والاكتئاب، وهذا من رحمة الله -تعالى- بعباده، وتكريمه لهذه النفس الإنسانية، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (٢).

يقول الدكتور مالك بدري(٣):

"لقد وجدت دائمًا أن إيمان مَرْضايَ بالإسلام يقدّم عونًا كبيرًا في علاجهم، وقد أحيلت إليّ مريضة مغربية في سنة ١٩٦٥م إلى قسم الطب النفسي العصبي في المستشفى التعليمي لجامعة الرباط، وكانت تشكو من عدد من الأشياء، من بينها القلق العام، ومشاعر بعدم التكيف، والاكتئاب... وقد أدخلت المستشفى أكثر من مرة ولكنها لم تحصّل فائدة سواء من العلاج التقليدي، أو العلاج النفسي

---

(١) سورة: (الأنعام)- من الآية: (١٢٢).

(٢) سورة: (الزمر)-: (٥٣).

(٣) مالك بابكر بدري محمد: هو كاتب وأستاذ علم نفس سوداني، ولد وترعرع في منطقة رفاعة جنوب الخرطوم، كان مؤسس علم النفس الإسلامي الحديث ونشر كتباً مُؤثرة مثل: "معضلة علماء النفس المسلمين"، حصل على البكالوريوس في علم النفس في الجامعة الأمريكية ببيروت عام ١٩٥٦، ثم واصل تعليمه في إنجلترا وحصل على ماجستير في جامعة ليستر عام ١٩٥٨م، ثم على الدكتوراه في ليستر عام ١٩٦١م ببريطانيا، إضافة إلى شهادة التخصص في علم النفس السريري عام ١٩٦٧م، له كتب كثيرة في علم النفس، تُرجمت بعضها إلى لغات العالم الإسلامي والعربي والروسية. اختارته وزارة الإعلام السودانية ليكون شخصية العام ٢٠٢٠ م لأبحاثه في علم النفس. توفي في يوم الاثنين ٨ فبراير ٢٠٢١ في العاصمة الماليزية كوالالمبور، حيث كان يتلقى الرعاية الصحية. "ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

الحديث، أو من الحبوب المهدئة، وفي إحدى الجلسات الجماعية كنت أقوم بتلاوة سورة من القرآن الكريم حول مغفرة الذنوب كتدعيم معنوي لأحد المرضى الذي كان في سبيله إلى مغادرة المستشفى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ ﴾ (١).

وقد استجابت لذلك بانفعال غير متوقع، وانهمرت دموعها، وبعد ذلك طلب مني رئيس المعالجين النفسيين أن أتولى علاجها، وداومت على تلاوة الآيات القرآنية التي تتناول غفران الله -تعالى- لجميع الذنوب، وشرحت لها جميع ذلك في لغة مبسّطة، وقد كانت تلك بداية اعتراف عاطفي وتحسن سريع للغاية..."(٢).

وقد كان من فضل الله -عز وجل- على الثلاثة الذين خُلّفوا عن غزوة تبوك أن قبل توبتهم رحمةً منه وكرمًا، يقول تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ ﴾(٣)، فلا خروج من ضيق الحياة وضيق النفس إلا باللجوء إلى الله -عزّ وجل- الذي لا ملجأ منه إلا إليه، فهو سبحانه الذي يُلين القلوب بعد قسوتها، ويعيد إلى النفس الحياة بعد موتها.

ثم ينوّه الله -سبحانه وتعالى- بشأن الجزاء الذي أعدّه الله للمؤمنين والمؤمنات الذين يتصدقون من أموالهم ابتغاء وجه الله، والذين صدقوا الله

---

(١) سورة: (آل عمران)- الآيات: (١٣٣ - ١٣٥)

(٢) "علماء النفس المسلمون في جحر الطب" مقال بمجلة المسلم المعاصر- العدد ١٦- ١ ديسمبر ١٩٧٨م.

(٣) سورة: (التوبة)- من الآية: (١١٨).

ورسوله ﷺ، فبين -عزّ وجل- أنه يضاعف لهم الجزاء، وزيادة على ذلك لهم أجرٌ كريمٌ لا يعلم قدره إلا هو -سبحانه-، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾ قرأ عامة القرّاء بتشديد الصاد والدال، بمعنى: إن المتصدِّقين والمتصدِّقات، ثم تُدغم التاء في الصاد، فتكون صادا مشدّدة. وقرأ ابن كثير وعاصم بتخفيف الصاد وتشديد الدال، بمعنى: إن الذين صدقوا الله ورسوله[١].

﴿ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ القرض الحسن: هو أنّ يتصدق من الطيب عن طِيب النفس وصحة النية على المستحق للصدقة[٢].

﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾ أي: ثواب التصدق، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، كما في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [٣].

﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ مقابلة إحسانهم وإنفاقهم.

فأي شيء أقوى أثرًا وأشدّ تحفيزًا للنفس على الصدقة من علم المتصدّق أنه يُقرض الله -تعالى-، وأنه -سبحانه- يضاعف له الجزاء أضعافًا مضاعفة؟!

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾[٤]

قال ابن عاشور في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " لما ذكر فضل المتصدقين وكان من المؤمنين من لا مال له ليتصدق منه أعقب ذكر المتصدقين ببيان فضل

---

(١) "جامع البيان" الطبري: (٢٣/ ١٩٠).
(٢) "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"- الزمخشري: (٤/ ٤٧٨).
(٣) سورة: (البقرة)- الآية: (٢٦١).
(٤) سورة: (الحديد)- الآية: (١٩).

المؤمنين مطلقا، وهو شامل لمن يستطيع أن يتصدق ومن لا يستطيع "[١]، فقال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ ؛ أي: والذين صدّقوا بالله ربًّا وبرسله دعاةً وهداةً أولئك في منزلة الصديقين، وهي مرتبة عالية اختصهم الله بها، والصِّدِّيق هو: "المبالغ في الصدق بما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم - وفي تنفيذ ما كُلّف به تنفيذا تاما"[٢].

﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾أي: والذين استشهدوا في المعارك في سبيل الله -تعالى- لهم أجرهم العظيم ونورهم التام يوم القيامة. هذا على أن قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾. لكنّ بعض المفسرين ذكر إعرابًا آخر، وهو أن قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾، ويكون المعنى حينئذ: والذين آمنوا بالله ورسله، أولئك في منزلة الصديقين والشهداء المعروفين بعلو الرتبة، ورفعة الدرجة[٣].

وبعد بيان هذا الجزاء الكبير الذي أعدّه الله -تعالى- للمؤمنين بالله ورسله تعرض الآيات في المقابل جزاء الكافرين المكذّبين بآيات الله بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾، أي: أولئك أصحاب النار الملازمين لها، لا يفارقونها أبدًا.

ونلاحظ هنا استخدام الآيات لأسلوب الترغيب والترهيب، والذي لا يخفى أثره في تربية النفس الإنسانية، وتوجيه الإنسان نفسيًّا وعقليًّا وسلوكيًّا، إذ "الإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم، وهو بذلك ميّال إلى كل ما يحقق

---

(١) "التحرير والتنوير": (٢٧/ ٣٩٦).

(٢) " التفسير الوسيط": (١٤/ ٢١٧).

(٣) يراجع "جامع البيان"- الطبري: (٢٣/ ١٩١)، "تفسير القرآن العظيم"- ابن كثير: (٨/ ٢٢).

له اللذة، وعَزُوف عن كل ما يسبب له الألم. ولهذا العامل تأثيرٌ كبير جدًّا في تربية الإنسان وتكوينه الخُلُقي وتوجيهه السلوكي؛ لأنه يجذبه إلى السبل المحمودة التي تنتهي به إلى اللذائذ المعنوية أو الحسّية، ويُجَنّبه السُّبل المذمومة التي تُلحِق به الآلام المعنوية أو الحسيّة، وكذلك فالإنسان مفطور على حبّ ما ينفعه إن عاجلًا أو آجلًا، وترك كل ما يضره أو يؤول به إلى الخسارة والوبال، ولهذا العامل تأثيره الكبير كذلك في تنشئة الإنسان تنشئة أخلاقية سليمة، وتوجيهه توجيهًا سلوكيًّا قويمًا". [١]

فقد وضعت الآيات هنا الإنسان بين أمرين: إما أن يختار لنفسه هذا الثواب والأجر الكريم، وإمّا أن يكون من أصحاب الجحيم!

"وهكذا يضع القرآن الكريم بمنهجه التربوي المؤمن بين الخوف من عذاب الله -تعالى- والرجاء في رحمته وثوابه، حتى لا يرهب من عذابه رهبةً توقعه في اليأس، ولا يرغب في رحمته رغبة توكله إلى الدعة ويتمنى فيها على الله ما ليس له"[٢].

(١) "أسس التربية الإسلامية في السنّة النبوية" د. عبد الحميد الصّيد الزناتي- ص: (٦٤٦، ٦٤٧) ط. الدار العربية للكتاب- الجماهرية العربية الليبية- الطبعة الثانية- ١٩٩٣م.

(٢) يراجع: "منهج تربوي فريد في القرآن"- د/ محمد سعيد رمضان البوطي: (ص: ٧٥) - مقال بمجلة الوعي الإسلامي-وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- الكويت-السنة: (السابعة)- العدد: (٨١)- أكتوبر- ١٩٧١م.

المبحث الخامس

بيان حقيقة الحياة الدنيا، والدعوة للمسابقة إلى مغفرة الله وجنته، وأثر ذلك على النفس الإنسانية.

يقول الله -تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

لازالت الآيات تخاطب المؤمنين لترشدهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فأمرتهم هنا بالعلم أولًا ثم بالعمل بمقتضى هذا العلم، وهذا من الأساليب التربوية التي تميّز بها القرآن الكريم، وذلك حتى يكون عمل الإنسان مبنيّ على أساس من العلم والقناعة العقلية التامة، فيكون ذلك أدعى إلى الإخلاص فيه والمداومة عليه.

فصُدّرت الآية هنا بفعل الأمر ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ الذي يثير اهتمام المخاطبين، ويدل على أهمية الأمر الذي يأتي بعده، وهو بيان حقيقة الحياة الدنيا، وأنها مجرد لعب لا فائدة منه، ولهو يشغل الإنسان عما فيه منفعته، وزينة وتفاخر بين الناس، وتكاثر في الأموال والأولاد، ثمّ تُزيد الأمر ترسيخًا وتصويرًا في ذهن السامع عن طريق أسلوب ضرب المثل الذي يصوّر المعقول في صورة المحسوس المشاهَد، فيكون ذلك أبلغ تأثيرًا في النفس، وأكثر إقناعًا للعقل، فبينت الآية أنّ مثل الحياة الدنيا في ذلك كمثل مطرٍ نزل على أرض قوم، فأنبت الزرع الذي أعجب الكفار لاكتماله وحسن مظهره، " والْكُفَّار هنا هم: الزُّرَّاع، سموا بذلك، لأن الزارع إذا ألقى البذر في الأرض كفَره، أي: غطاه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي:

---

(١) سورة: (الحديد)- الآيتان: (٢٠ – ٢١).

ييبس ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ﴾ بعد خضرته وَرِيِّه، ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا ﴾ أي: ينحطم، وينكسر بعد يبسه"[١]، فلا يكون منه منفعة ولا فائدة.

وإذا كان أمر الدنيا بهذه الصفة، فإن أمر الآخرة على العكس من ذلك، لأنه ليس فيها إلا الجدّ والحساب، فإما عذاب شديد لمن آثر الحياة الدنيا، وإما مغفرة من الله ورضوان لمن آمن وعمل صالحًا، ﴿ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ ﴾. فالموت في الإسلام ليس نهاية المطاف، بل هو مجرد انتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، ليلقى كلُّ إنسان جزاءه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

"ويُلاحظ أن القرآن لا يعتمد فقط في إثارة الدافع لقبول الإسلام على تخويف الناس وترهيبهم من العذاب الأليم في نار جهنم، وإنما يعتمد أيضًا -في نفس الوقت- على ترغيبهم في الاستمتاع بنعيم الجنة. وذلك لأن استخدام الترهيب وحده، أو الترغيب وحده قد لا يكون مفيدًا الفائدة المرجوّة في تعديل السلوك وتوجيهه. فاستخدام الترهيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرهبة على النفس، فتيأس من رحمة الله، واستخدام الترغيب وحده قد يؤدي إلى استيلاء الأمل في رحمة الله على النفس، مما قد يوكلها إلى الدعة والتهاون والغفلة"[٢].

"وفي ظلّ هذا التجاذب بين جانبي الرغبة والرهبة ينشط المؤمن للسعي إلى مرضاة الله وتنفيذ أوامره وأحكامه، ويتحقق فيه معنى العبودية التي لا تتكامل إلا بشعورين من الرغبة والرهبة معًا"[٣].

ثُم تُختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ أي: متاع زائل، يغتر به كل من يركن إليه، فكل ما في الدنيا -من نعيم أو شقاء- إنما هو بالنسبة إلى الآخرة متاعٌ زائل لا يدوم.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم في تصويره للحياة الدنيا بهذه

---

(١) يراجع: زاد المسير في علم التفسير- ابن الجوزي: (٤/ ٢٣٦) - المحقق: عبد الرزاق المهدي- الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

(٢) "القرآن وعلم النفس" د/ محمد عثمان نجاتي: (ص: ١٧٠).

(٣) "منهج تربوي فريد في القرآن": (ص: ٧٥).

الصورة؛ لا يدعو الإنسان إلى التخلي عن دوره المنوط به في خلافة الأرض وعمارتها، أو إلى الزهد والاستكانة والانسحاب من ميادين العمل، وإنما هو تصحيح للمفاهيم، وتوجيه للنفس البشرية، وإقامة موازنةٍ بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

وفي هذا علاجٌ تربويٌّ شامل للنفس الإنسانية، خاصةً عندما تطغى المادة على الروح، لأن النفس بطبيعتها تميل إلى الدنيا والاغترار بما فيها من متاع وشهوات، فكان هذا الخطاب القرآنيّ للحد من هذا الميل والركون إلى الدنيا، ولتوجيه نفس الإنسان إلى أن هناك دارًا أخرى جديرة بالاهتمام؛ لأنها دار حساب وجزاء، ودارٌ باقيةٌ لا تنتهي ولا تزول.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن القرآن يبين لهم الاتجاه الصحيح الذي يجب أن يكونوا عليه، فيدعوهم للمسابقة إلى الآخرة بقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾.

"عبر عن العناية والاهتمام بفعل «المسابقة» لإلهاب النفوس بصرف العناية بأقصى ما يمكن من الفضائل كفعل من يسابق غيره إلى غاية"(١).

والمعنى: سارعوا أيها المؤمنون مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار(٢)، إلى أفعال البر الموجبة لمغفرة الله -تعالى- ونعيم الجنة، واتركوا المقتصرين على متاع الدنيا.

وهذا الأسلوب أحد الأساليب التربوية التي استخدمها القرآن الكريم في العديد من الآيات، من ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾(٣)، وقد جعل الله -تعالى-

---

(١) "التحرير والتنوير": (٢٧/ ٤٠٧).

(٢) يراجع: "الكشاف"- الزمخشري: (٤/ ٤٧٩) - دار الكتاب العربي– بيروت-الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

(٣) سورة: (آل عمران) - الآية: (١٣٣).

المسارعة في الخيرات من صفات المؤمنين قال سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[1]، وقال تعالى بعد أن بيّن نعيم الجنة: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2].

والنبي الكريم ﷺ يدعونا إلى المسابقة والمسارعة إلى الأعمال الصالحة قبل أن يحلَّ بالإنسان ما يمنعه من أدائها، فالعاقل هو من ينتهز الفرصة، ولا يُسَوّف ويماطل فيما يجب عليه القيام به، فيقع فريسة بعد ذلك لضغوطٍ نفسيّة بعيدة المدى.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **{بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تُنْظَرُونَ إلا فقرًا منسيا، أو غنىً مُطغيًا، أو مرضًا مُفْسِدًا، أو هَرَمًا مُفَنِّدًا، أو موتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}**. [3]

"ويؤكد خبراء التربية أنه كلما تنوعت مجالات التنافس وتوسعت دائرتها لتشمل كافة النشاطات المعرفية والعلمية والرياضية والفنية والكشفية والاجتماعية واللغوية والابتكارية، زادت احتمالات ضمان توسع المشاركة فيها، وغدا من الأقرب أن يجد كل مجتهد نصيبه"[4].

حيث إن المسابقة والتنافس من الأساليب التي تستخدم لزيادة الدافعية والتحفيز، فهي تدفع بالإنسان إلى مضاعفة الجهد وتحسين الأداء، حتى يحصل على غايته المرجوّة.

والمسلم إذ يسابق إلى فعل الخير فإنه إنما يبتغي بفعله هذا رضا الله-عزّ وجل- ومغفرته، وثوابه الجزيل في الدنيا والآخرة، ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) سورة: (المؤمنون)- الآية: (٦١).

(٢) سورة: (المطففين)- الآية: (٢٦).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، وقال: "هذا حديث حسن غريب". يراجع: "الجامع الصحيح سنن الترمذي"- محمد بن عيسى الترمذي: (٤/ ٥٥٢)- رقم: (٢٣٠٦)- كتاب: الزهد - باب: "ما جاء في المبادرة بالعمل"- ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت- تحقيق: أحمد محمد شاكر.

(٤) "أسس علم النفس التربوي"- د/ هشام عثمان خوجلي: (ص: ١٣١) - مكتبة الرشد- الرياض- ١٤٢٦هـ.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، فهو دائمًا موصول بربه، يفعل ما يفعله على أساسٍ من الإيمان به -عزّ جل، والإخلاص التام له -سبحانه-، واليقين الكامل في موفور جزائه وعطائه -تعالى-.

ثم تزيد الآية المؤمن تحفيزًا، وتدفعه دفعًا قويًّا إلى المشاركة في هذه المسابقة حتى يفوز بمغفرة الله -تعالى- وجنته التي عرضها كعرض السماء والأرض، بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ أي: الذي لا يعلم مقداره إلا هو سبحانه.

المبحث السادس

نهي المؤمن عن الحزن على ما فات، أو الفرح بما في يديه، لأن كل شيء قد سبقت كتابته عند الله، وذم البخل، وأثر ذلك على تربية النفس الإنسانية

قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

أي: ما أصابكم -أيها الناس- من مصيبة في الأرض بالجدب والقحط وذهاب الزرع وغير ذلك، ولا في أنفسكم بالأمراض والأوجاع والأسقام والموت والصعاب ونحوها، إلاّ وكل ذلك مكتوب عند الله في كتاب -وهو اللوح المحفوظ- من قبل أن يبرأ الله النفوس ويخلقها، إن إثبات ذلك وإحصاءه يسير على الله لإحاطة علمه -تعالى- بكل شيء، وقد أعلمناكم ذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم حزناً مفرطاً يجرُّكم إلى السخط، ولا تفرحوا بما آتاكم فرحاً يجركم إلى الفخر والكبر والبطر. [2]

إن الإيمان بالقدر يجعل المؤمن راضيًا تمام الرضا بما قدّره الله عليه من خير أو شرّ، موقنًا تمام اليقين بأنه مهما بذل من أسبابٍ فلن يغيّر من قدر الله شيئًا، لأنه قد سبقت كتابته عند الله قبل خلق الإنسان، فما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، والمؤمن يعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد جعل القرآن الكريم الإيمان بالله -تعالى- هو الحل الأمثل لمواجهة الإنسان ما يصيبه من مصائب الدنيا، فإيمان المؤمن بالله واعتقاده بأن كل شيء يحدث في الكون إنما هو بإذن الله؛ كفيل بهداية قلبه وطمأنينة نفسه حِيال تلك المصائب، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [3].

---

(١) سورة: "الحديد": الآيات: (٢٢ – ٢٤).
(٢) يراجع: "جامع البيان: (٢٣/ ١٩٥- ١٩٥).
(٣) سورة: التغابن- الآية: (١١).

"إن إحساس المؤمن بأن زمام العالم لن يفلت من يد الله -تعالى- يقذف بمقادير كبيرة من الطمأنينة في فؤاده. إذ مهما اضطربت الأحداث وتقلبت فلن تَبُتَّ فيها إلا المشيئة العليا: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1] ".[2]

والقرآن الكريم يحفظ على المؤمن توازنه وثباته الانفعالي إزاء ما يصيبه من مصائب وأحداث خارجة عن إرادته؛ حيث يأمر المؤمن بترديد تلك العبارة، وهي قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١ ﴾[3]، مما يبعث في نفسه الطمأنينة والسلام النفسي، ويجعله يستمر في الحياة بثباتٍ، مُكْمِلًا دوره الأساسي المنوط به، لا يبكي على فائت، ولا يحمل همّ المستقبل الذي لم يأت بعد؛ بل يعيش في حدود يومه وحسب.

وهنا أشير إلى أن رضا المؤمن بالقدر لا يعني عدم الأخذ بالأسباب أو الاجتهاد في تحصيلها، فهو مطالب بالسعي والعمل أولًا، وإنما يكون ذلك بعد أن يؤدي ما عليه من واجبات.

"إن المؤمن يتوكل على الله ويستريح إلى ما يتمخض عنه المستقبل من نتائج بعد ما بذل جهده فيما وُكِل إليه من عمل وإعداد واحتياط. والحق أنه لا معنى لتوتر الأعصاب واشتداد القلق بإزاء أمور تخرج عن نطاق إرادتنا"[4].

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**». [5]

---

(١) سورة: "يوسف"- من الآية:(٢١).

(٢) "جدد حياتك"- الشيخ محمد الغزالي: ص: (٧٥) ط. دار الكتب الإسلامية- القاهرة.

(٣) سورة: "التوبة"- الآية:(٥١).

(٤) "جدد حياتك"- ص: (٧٥).

(٥) "صحيح مسلم": (٤/ ٢٠٥٢) - رقم: (٢٦٦٤) - كتاب: القدر- باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله.

ويجب على المؤمن أن ينظر إلى المصائب على أنها تجارب في الحياة الدنيا وحسنات في الدار الآخرة، وأن الله سيأجره على الصبر عليها، ويخلف له خيرًا منها، وبهذا يحمي نفسه من الحزن والاكتئاب واليأس. فعن أم سلمة - زَوْجَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: {مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١]، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا}. [٢]

"وقد بدأت كذلك تظهر حديثًا اتجاهات بين بعض علماء النفس تنادي بأهمية الدين في الصحة النفسية وفي علاج الأمراض النفسية، وترى أن في الإيمان بالله قوة خارقة تمدّ الإنسان المتدين بطاقة روحية تعينه على تحمل مشاقّ الحياة، وتجنبه القلق الذي يتعرض له كثير من الناس الذين يعيشون في هذا العصر الحديث الذي يسيطر عليه الاهتمام الكبير بالحياة المادية، ويسوده التنافس الشديد من أجل الكسب المادي، والذي يفتقر في الوقت نفسه إلى الغذاء الروحي، مما سبب كثيرًا من الضغط والتوتر لدى الإنسان المعاصر، وجعله نهبًا للقلق وعرضة للإصابة بالأمراض النفسية". [٣]

قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

المراد: بالحزن المنهي عنه في الآية: هو الذي يُذْهِل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ويصل به إلى حدّ الجزع والقنوط، والفرح المنهي عنه هنا: هو المُطغي المُلهي عن الشكر الذي يصل به إلى البطر والكبر، "فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام، والفرح بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما"[٤] ، لأن الله لا يُكلف نفسًا فوق طاقتها ووسعها.

---

(١) سورة: " البقرة"- من الآية: (١٥٦).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: (٢/ ٦٣٢) رقم: (٩١٨) كتاب: "الجنائز"- باب: "ما يقال عند المصيبة".

(٣) " القرآن وعلم النفس": (ص: ٢٦٨).

(٤) "الكشاف"- الزمخشري: (٤/ ٤٨٠).

والفرح هو شعورٌ ينتاب الإنسان إذا نال ما يحبه ويهدف إليه، فمن كانت الدنيا همّه وهدفه الأساسي كان الباعث على فرحه ما يصيبه من متاعها من مال أو نفوذ أو سلطان أو غير ذلك من الأمور الدنيوية، ومن كانت الآخرة همّه كان فرحه بسبب ما يُحصّله من إيمان بالله -عزّ وجل- وتقوى وعمل صالح، إذن فالفرح شعور نسبي، يختلف باختلاف سببه والباعث عليه.

وعلى المؤمن أن يجعل فرحه لهذا السبب الثاني، فيفرح بما يُحصّله من طاعة الله -تعالى- والإيمان به والعمل الصالح الذي يكون غايته فيه رضا الله -عز وجل- وما يناله من فضل الله ورحمته، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ ﴾[1].

وفي المقابل ذمّ الله الذين يفرحون بمتاع الدنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦ ﴾[2]، وقال سبحانه حكايةً عن قارون: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ ﴾[3].

"ومن كان متاع الدنيا هو مصدر فرحه وسروره -وهو شأن معظم الناس-؛ فإنه لا ينعم في الواقع بالحياة السعيدة المطمئنة المستقرّة. وذلك لأنه إذا ما أنعم الله عليه بنعمة الصحة وسعة الرزق ووفرة المال؛ شعر بالفرح والسعادة، وشغله متاع الدنيا ونعمتها عن ذكر الله وشكره، وإذا ما أصابه ضرر أو بلاء وفقد بعض النعم التي كان يتمتّع بها؛ تَمَلَّكه اليأس وجحد النعم الأخرى التي لا يزال ينعم بها. وهكذا يعيش الإنسان في اضطراب مستمر، وفي تقلب دائم بين الشعور

---

(١) سورة: "يونس"- الآيتان: (٥٧ – ٥٨).

(٢) سورة: "الرعد"-الآية: (٢٦).

(٣) سورة: "القصص"- الآيتان: (٧٦ – ٧٧).

بالسعادة، والشعور باليأس"[١].

يقول تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[٢].

فبالصبر وبالعمل الصالح يصير المؤمن متّزنًا قويًّا، بعيدًا عن أي قلق أو اضطراب نفسي، منضبط الانفعالات إزاء ما يصيبه في الحياة، فلا يبالغ في الحزن على ما فاته فييأس من رحمة الله، ولا يبالغ في الفرح بما يناله من خير فيكون ذلك سببًا لاختياله وفخره. وهكذا تستهدف الآيات تربية المؤمن وصولًا به إلى أقصى درجات الكمال النفسي والسلوكي.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾؛ كأنه قال: لا يحب الذين يبخلون، فالمختال بالمال يضن به غالبا، لأنه يفرح به فرحًا مطغيًا ويعظم في عينيه، ويرى أنه لا حقّ لأحدٍ فيه، وأنه إنما حصّله بسبب كسبه وذكائه، وينسى أنه مستخلف في هذا المال الذي آتاه الله إياه، ولا يقف عند هذا الحدّ فيكتفي ببخله؛ بل يأمر غيره بالبخل ويُرغّبه في الإمساك عن الإنفاق في سبيل الله، حتى يؤيد موقفه، ويجد له مناصرين وأعوانًا. [٣]

فالبخل من الأمراض النفسية التي تصيب بعض الناس، وهو دليل على ضعف العقل، وعدم ثقة الإنسان بربه، وسبب للحرمان من متاع الدنيا وثواب

---

(١) "القرآن وعلم النفس"- د/ محمد عثمان نجاتي: (ص: ٩٤، ٩٥).

(٢) سورة: "هود"- الآيات: (٩ – ١١).

(٣) يراجع: "الكشاف"- للزمخشري: (٤/ ٤٨٠)، "إرشاد العقل السليم"- لأبي السعود: (٨/ ٢١٢).

الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[١].

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بالله دائمًا من البخل، فكان من دعائه ﷺ: **{اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ}**[٢] .

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول أبو السعود -رحمه الله-: في معنى هذه الآية: "ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غني عنه وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره. وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق". [٣]

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[٤].

فهو سبحانه الغنيّ عن كل ما سواه، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله، لا يُحدّ فضله ولا تُحصى نعمه، ولا تنفد خزائنه.

---

(١) سورة: "التغابن"- من الآية: (١٦).
(٢) "صحيح البخاري": (٥/ ٢٣٤٢) - رقم: (٦٠٠٨) - كتاب: "الدعوات" - باب: "الاستعاذة من الجبن والكسل".
(٣) "إرشاد العقل السليم": (٨/ ٢١٢).
(٤) سورة: " إبراهيم"- الآية: (٨).

المبحث السابع

بيان بعض الحكم من إرسال الرسل، وأن منها إقامة القسط بين الناس، وأثر ذلك على النفس الإنسانية.

قولـه تعـالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [١]

تقرر الآيات هنا حقيقة هامة، ألا وهي إرسال الله -تعالى- للرسل بالحجج الباهرة والبينات القاطعة، بهدف إقامة الحق والعدل بين الناس.

فالله عزّ وجل لم يترك الناس سدىً بدون تشريع أو تعليم يحفظ عليهم حياتهم ودينهم؛ بل أرسل رسله بالبينات، وأنزل معهم الكتب السماوية التي تشهد بصدقهم، ولعل في استخدام اسم الجنس هنا ﴿الْكِتَابَ﴾ دلالة على وحدة الكتب السماوية جميعها في المصدر والغاية، كما أنزل معهم (الميزان)، وهو العدل والحق الذي به توزن الأمور، ويعرف صحيحها من سقيمها، ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، فالهدف من ذلك هو إصلاح حال الناس، واستقامة أحوالهم، والتزامهم بالحق والعدل في جميع أمورهم.

كما أنه -تعالى- أنزل لهم ﴿الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: قوة شديدة؛ لأنه

---

(١) سورة: (الحديد)- الآيات: (٢٥ – ٢٧).

تتخذ منه آلات الحرب ويدفع الناس به عدوان بعضهم على بعض، كما أكّد العلم الحديث "أن الحديد عنصر فلزيّ شديد البأس، وهو أكثر العناصر ثباتا، وذلك لشده تماسك مكونات النواة في ذرته، والتي تعدُّ أعلى قدرًا من طاقه التماسك بين جميع نوى العناصر الأخرى، ولذا فهي تحتاج الي كميات هائلة من الطاقة لتفتيتها، أو للإضافة إليها"[١].

وفيه أيضاً ﴿ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ متعددة، فهم ينتفعون به في كثير مما يحتاجون إليه سواء في السلم والحرب، وهو عصب الصناعات بأنواعها المختلفة، فما من صنعة إلا والحديد داخل في صناعتها[٢]، كما أن "للحديد منافع جمة وفوائد أساسية لجعل الأرض صالحة للعمران بتقدير من الله، ولبناء اللبنات الأساسية للحياة، فكمية الحديد الهائلة في كل من لب الأرض الصلب، ولبها السائل تلعب دورا مهما في توليد المجال المغناطيسي للأرض، وهذا المجال هو الذي يمسك بكل من الغلاف الغازي والمائي والحيوي للأرض، وغلاف الأرض الغازي يحميها من الأشعة والجسيمات الكونية ومن العديد من أشِعّات الشمس الضارة، ومن ملايين الأطنان من النيازك، ويساعد علي ضبط العديد من العمليات الأرضية المهمة من مثل دورة كل من الماء، والأكسجين، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون وغيرها من العمليات اللازمة لجعل الأرض كوكبا صالحا للعمران. كما أن الحديد لازمة من لوازم بناء الخلية الحية في كل من النبات والحيوان والإنسان، ويحتاج الكائن الحي إلى قدر محدد من الحديد اذا نقص تعرض للكثير من الأمراض..."[٣].

قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي: وليعلم الله علمًا ظاهرًا للخلق من ينصر دينه ورسله بالغيب. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

---

(١) "من أسرار القرآن" مقال للدكتور/ زغلول النجار- نشر في جريدة الأهرام ضمن سلسلة: "من الآيات الكونية في القرآن الكريم"- بتاريخ ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١ م.

(٢) يراجع: "إرشاد العقل السليم":(٨/ ٢١٢)، "فتح القدير": (٥/ ٢١٢).

(٣) "من أسرار القرآن" د/ زغلول النجار.

" تنبيها على أن تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته في إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرتهم، بل إنما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب وإلا فهو غني بقدرته وعزته عنهم في كل ما يريده"(١).

وبهذا نلاحظ أن السورة الكريمة قد جعلت الحفاظ على النفس الإنسانية هو المحور الرئيسي الذي تدور عليه، فهي تدعو إلى توجيه سلوك الإنسان وتربية نفسه بأسلوبٍ متكاملٍ، تارة عن طريق تصحيح عقيدته وربطه بخالقه وخالق الكون بما فيه، والإيمان بالله وبرسوله -ﷺ-، وتارةً عن طريق دعوته إلى الإنفاق في سبيل الله، وتارةً عن طريق عرض بعض مشاهد يوم القيامة، وتارة عن طريق ترغيبه في الرجوع إلى الله -تعالى، وتارة عن طريق بيان حقيقة الحياة الدنيا، ودعوته إلى المسابقة إلى مغفرة الله وجنته، ونهيه عن الحزن على ما فاته، أو الفرح بما في يديه، وهنا عن طريق الدعوة إلى إقامة الحق والعدل بين الناس، وبيان أنه -تعالى- أرسل رسله -عليهم السلام- من أجل هذا الهدف، فلم يترك التشريع الذي تبنى عليه معاملات الناس وحياتهم ملكًا لأحد من الخلق يختلف ويتغير باختلاف المذاهب والأهواء، بل أرسل الرسل بالبينات الواضحة، وشرّع من خلالهم التشريعات الحكيمة التي تنظم حياة الناس في كل نواحيها وتُصلح أمورهم وتحمل الخير لهم، وأنزل معهم الميزان الثابت الذي به يعرف الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، بل ودعا إلى حماية الحق ونصرته بشتى الطرق، حتى يصير المجتمع في مأمنٍ من عبث العابثين، وانحراف المنحرفين، ومكابرة المكابرين.

ثم توضح الآيات وحدة هذا الدين على مدى تاريخه الطويل من لدن آدم -عليه السلام- إلى خاتمهم نبينا محمدٍ -ﷺ-، مرورًا بنوحٍ وإبراهيم وعيسى -عليهم السلام- ، ملقيةً الضوء على بعض صفات أتباع المسيح -عليه السلام- بقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ

---

(١) "إرشاد العقل السليم":(٨/ ٢١٢).

أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فقد وصفهم الله -تعالى- بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أي: شفقة شديدة ورقة وعطفاً، ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ الرهبانية: غلو في تحمل التعبد من فرط الرهبة[١]، ابتدعها أئمة النصارى من عند أنفسهم، زيادة في العبادة وغلوًّا في التدين، لم يفرضها الله -عزّ وجلّ- عليهم ابتداءً، ولكن التزموها ابتغاء رضوان الله تعالى، ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي: نصيبهم من الأجر والثواب، وهم الذين آمنوا بالنبي محمد -ﷺ-، ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي: خارجون عن الطاعة والطريق المستقيم، وهم المكذبون بالنبي محمد-ﷺ-، المبدلون لما جاء به عيسى -عليه السلام- القائلون بأن الله ثالث ثلاثة، أو بأن المسيح ابن الله [٢].

فقد نوّه الله -تعالى- بما جعله في قلوبهم من الرأفة والرحمة، وعاب عليهم من وجهين: "أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله، عز وجل"[٣].

والإسلام دين يدعو إلى الوسطية والاعتدال، يوازن بين المادة والروح، ويجمع بين متطلبات الجسد ومتطلبات النفس، لا يدعو إلى الرهبانية ولا يأمر بها؛ ذلك أن الرهبانية شيء لا تتحمله النفس الإنسانية، وهو فوق طاقتها، لأنه اتجاهٌ يتناقض مع الفطرة السويّة التي فطر الله الناس عليها، يقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٤]، ويقول -عز وجل-: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

---

(١) "المفردات في غريب القرآن"_ ص: (٣٦٧).
(٢) يراجع: "تفسير القرآن العظيم"- ابن كثير: (٨/ ٢٩).
(٣) المرجع السابق- نفس الجزء والصفحة.
(٤) سورة: (الحج)- من الآية: (٧٨).

وُسْعَهَا ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[٢].

وقد نهى الإسلام عن التشدد والغلو في الدين، وجعل القليل الدائم من العمل خيرٌ من الكثير المنقطع، سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ»[٣]، وقال -صلى الله عليه وسلم-: « عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الأَعْمَالِ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»[٤].

فعلى المؤمن أن يلتزم بما شرعه الله -تعالى-، ولا يكلف نفسه من العمل ما لا يطيق، حتى يكون ذلك أدعى إلى المواظبة والمداومة عليه.

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

(١) سورة: (البقرة) – من الآية: (٢٨٦).

(٢) سورة: (البقرة)- من الآية: (١٨٥).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: (١/ ٥٤١) – رقم: (٧٨٢)- كتاب: صلاة المسافرين وقصرها- باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

(٤) "صحيح البخاري": (٢/ ٥٤)- رقم: (١١٥١)- كتاب: "التهجد"- باب: "ما يكره من التشديد في العبادة".

المبحث الثامن

ختام السورة بتحفيز المؤمن على تقوى الله -عزّ وجل- لنيل الأجر المضاعف، وابتغاء الفضل منه -عزّ وجلّ- وحده، وأثر ذلك على تربية النفس الإنسانية.

تُختم السورة الكريمة بهذا النداء للمؤمنين وحثهم على تقوى الله -عزّ وجلّ- والإيمان برسوله -صلى الله عليه وسلم-، فيقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾[1].

ورد في سبب نزول هاتين الآيتين: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ الآية[2]، فخر مؤمنوا أهل الكتاب على أصحاب النبي -صلى الله عليه و سلم- فقالوا: لنا أجران ولكم أجر، فاشتد ذلك على الصحابة فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ الآية، فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب"[3].

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: بلغنا أنه لما نزلت: ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ حسد أهل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله: ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الآية [4].

---

(١) سورة: (الحديد)-الآيتان: (٢٨ – ٢٩).

(٢) سورة: (القصص)- من الآية: (٥٤).

(٣) "تفسير القرآن العظيم"- ابن أبي حاتم": (١٠/ ٣٣٤١)- رقم: (١٨٨٣٥) ط. مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية- الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ، "الباب النقول في أسباب النزول"- عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي: ص: (٢٠٤)- ط. دار إحياء العلوم – بيروت- لبنان.

(٤) "جامع البيان": (٢٣/ ٢١٤).

والمراد بالذين آمنوا في هذه الآية: يحتمل أن يراد به المؤمنون بالنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- كما هو الغالب في القرآن الكريم، لكن لمّا كانت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ ﴾[1] ، احتمل أن يكون المراد به مؤمنوا أهل الكتاب.

فإذا كان الخطاب لمؤمني أهل الكتاب يكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا إيمانا خالصا بشريعة عيسى اتقوا الله واخشوا عقابه، واتركوا العصبية والحسد وسوء النظر، وآمنوا بمحمد ﷺ"، ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ أي: نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم بعيسى -عليه السلام- وبمحمد [2]ﷺ.

أما إذا كان الخطاب لمؤمني هذه الأمة، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا خافوا الله بأداء ما أمر به وترك ما نهى عنه، وداوموا واثبتوا على ما أنتم عليه من إيمان، ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ بسبب إيمانكم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- والأنبياء السابقين من قبله، ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾أي: هدى يُتَبَصَّر به من العمى والجهالة، ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾: فضّلهم بالنور والمغفرة. رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير[3].

أخرج البخاري في صحيحه عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه أخبره أنه سمع رسول الله ﷺيقول: **"إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَيْ رَبَّنَا أَعْطَيْتَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي**

---

(١) سورة: (الحديد)- من الآية: (٢٧).

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، والضحاك. "جامع البيان": (٢٣/ ٢٠٧).

(٣) يراجع: "جامع البيان": (٢٣/ ٢٠٩)- "تفسير القرآن العظيم"- ابن كثير: (٨/ ٣٢).

أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ"[١].

ففي هذه الآية تحفيز للمؤمن على تقوى الله والمداومة على الإيمان بمحفزّات عدّة؛ وهي: مضاعفة الأجر منه -سبحانه-، والحصول على النور الذي به يميزّ المؤمن بين الحق والباطل، ويهتدي به في هذه الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[٢]، ويقول تعالى:

﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾[٣].

وبهذا النور يتميز المؤمن من غيره؛ يقول تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾[٤]، والذي بدونه لا يستطيع الإنسان مواصلة السير في ظلمات هذه الدنيا والصمود أمام ضغوطها وصعابها؛ يقول تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[٥]، كما أن هذا النور يظل مصاحبًا للمؤمن في الآخرة حتى يدخل الجنة، وهو المشار إليه في هذه السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ ﴾[٦].

أمّا المحفّز الثالث فهو الحصول على المغفرة التامة من الله -تعالى- الغفور الرحيم.

---

(١) "صحيح البخاري": (١/ ٢٠٤) رقم: (٥٣٢) كتاب: مواقيت الصلاة- باب: من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب.

(٢) سورة: (الزمر)- من الآية: (٢٢).

(٣) سورة: (المائدة) - الآيتان: (١٥ – ١٦).

(٤) سورة: (الأنعام)- من الآية: (١٢٢).

(٥) سورة: (النور)- من الآية: (٤٠).

(٦) سورة: (الحديد)- الآية: (١٢).

قولـــه تعـــالى: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

معظم المفسرين على أن (لا) هنا صلة زائدة، وأن المعنى على الإثبات، والتقدير: "ليعلم أهل الكتاب"، على معنى: أن أهل الكتاب كانوا يرون أن الله قد فضّلهم على جميع الخلق، وأن النبوّة والوحي مختص بهم وغير حاصل لغيرهم، فأعلمهم الله -تعالى- أنه قد آتى أمة محمد -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم- من الفضل والكرامة، ما لم يؤتهم، وأن أهل الكتاب حسدوا المؤمنين لما نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ... ﴾ الآية، فأعلمهم الله أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ولا اعتراض عليه في ذلك[١].

لكن ذهب آخرون[٢] إلى أنّ (لا) ليست بزائدة، ولكنها (نافية)، وأنّ الضمير في چچ يعود إلى النبي ﷺ وأصحابه، والتقدير: لئلا يعلم أهل الكتاب أن النبي -ﷺ- والمؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله، ضمّن الفعل (يقدرون) معنى (ينالون)، والمعنى: إنا فعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد أهل الكتاب أن النبي -ﷺ- والمؤمنين لا ينالون فضل الله -تعالى- ولا يقدرون عليه، وليعتقدوا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ولا يمكنهم حصر فضله وإحسانه في أقوام معينين".[٣]

وقد قرر هذا القول الفخر الرازي بقوله: "واعلم أن هذا القول ليس فيه إلا أنا أضمرنا فيه زيادة، فقلنا في قوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ تقدير: وليعتقدوا أن الفضل بيد الله، وأما القول الأول: فقد افتقرنا فيه إلى حذف شيء،

---

(١) يراجع: "جامع البيان": (٢٣/ ٢١٣)، "مفاتيح الغيب"- الرازي: (٢٩/ ٤٧٥).

(٢) ذهب إلى ذلك أبو مسلم الأصفهاني، وقرره الفخر الرازي في تفسيره. "تفسير أبي مسلم الأصفهاني المتوفى سنة ٣٢٢هـ": (ص: ٢٤٠) جمع وتحقيق: د/ خضر محمد بنها، "مفاتيح الغيب": (٢٩/ ٤٧٦).

(٣) المصدرين السابقين.

ومن المعلوم أن الإضمار أولى من الحذف، لأن الكلام إذا افتقر إلى الإضمار لم يوهم ظاهره باطلا أصلا، أما إذا افتقر إلى الحذف كان ظاهره موهما للباطل، فعلمنا أن هذا القول أولى والله أعلم"[١].

وذهب ابن عاشور كذلك إلى أن دعوى زيادة (لا) لا داعي إليها، وأن بقاءها على أصل معناها -وهو النفي- أمرٌ متعين، لكنه جعل اللام في قوله: ﴿ لِّئَلَّا ﴾: للعاقبة، وقال بأن المعنى: "أعطيناكم هذا الفضل وحرم منه أهل الكتاب، فبقي أهل الكتاب في جهلهم وغرورهم بأن لهم الفضل المستمر ولم يحصل لهم علم بانتفاء أن يكونوا يملكون فضل الله ولا أن الله قد أعطى الفضل قوما آخرين وحرمهم إياه، فينسون أن الفضل بيد الله، وليس أحد يستحقه بالذات"[٢].

وأيًّا ما كان المعنى؛ فإن الآية تدل على أن فضل الله -تعالى- ليس حكرًا على أحد، بل هو بيد الله -عزّ وجل- وحده، يمنحه لمن يشاء من عباده، ولا يمنعه أي أحدٍ مهما بلغ، ذلك أنه -سبحانه- صاحب الفضل العظيم الذي لا يُعَدّ ولا يُحَدّ.

وبذلك تختم السورة الكريمة بهذا الختام الرائع الذي يُطَمْئن نفس المؤمن، ويُعلّق قلبه بربّه ومولاه، ويجعله يبتغي الفضل والثواب منه -سبحانه- وحده، لا من غيره، ذلك أنه -تعالى- لا نهاية لفضله، ولا حدّ لعطائه، ولا معقّب لحكمه، لا يمكن لمخلوق أن يمنع خيرًا أراده الله بعبده، سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، يقول تعالى: ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾[٣].

فعلى المؤمن أن يعلم أن ربّه قريب منه، يعلم حاجته، ويسمع شكوته، ويجيب دعوته، ويفرج همّه، ويهدي قلبه، ويشفي صدره، ويمنحه فضله، فينتظر الخير والفرج القريب من ربّه -سبحانه-، يقول النبي ﷺ: **{ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ**

---

(١) "مفاتيح الغيب": (٢٩/ ٤٧٦).
(٢) "التحرير والتنوير": (٢٧/ ٤٣٢).
(٣) سورة: (يونس)- من الآية: (١٠٧).

اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ}(١).

وبهذا يتبن أن آيات تلك السورة الكريمة حلقات مترابطة البناء، يمهّد أولُها لآخرها، ويصدّق آخرُها أولها ويؤكّده، كما أن تلك السورة الكريمة قد أبرزت نموذجًا للأسلوب القرآني الفريد في تربية النفس الإنسانية تربيةً متكاملةً، تصل بها إلى سعادة الدنيا والآخرة.

والله -تعالى- أعلم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"- أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. "سنن الترمذي": (٤/ ٦٦٧) رقم: (٢٥١٦) -محمد بن عيسى الترمذي، ط. مصطفى البابي الحلبي – مصر- الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

خاتمة البحث

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبيّه ومصطفاه، نبيّنا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد،

فختامًا لهذا البحث أشير إلى أنّ القرآن الكريم قد سبق بمنهجه التربويّ كل نظريات علم النفس الحديث؛ ذلك لأنه منهجٌ ربانيّ المصدر، من عند خالق النفس وبارئها، العليم بأسرارها وأغوارها، والخبير بما يصلحها وما يفسدها، وهو في الوقت ذاته منهجٌ متكامل، لا يعالج ناحيةً على حساب أخرى؛ بل يراعي الروح والعقل والجسد معًا، ولا يحابي أحدًا على حساب أحد؛ بل يحمي كلًا من الفرد والمجتمع، ولا يحاسب الإنسان على مجرد عمله الظاهر فقط متجاهلًا نيّته ومكنون قلبه؛ بل يحاسبه ربُّه على عمله ونيّته على السواء، ولا يهتم بأمر الدنيا وينسى أمر الآخرة؛ بل يجمع بين خيْري الدنيا والآخرة، كما أنه منهجٌ مضمون النتائج لا مجال فيه للتجربة أو النظريات الخاطئة؛ بل هو منهجٌ صحيح سليم يُصحح العقيدة ويوجّه السلوك ويضبط الانفعال، يأخذ بيد الإنسان إلى ما فيه نجاته وسعادته الدينية والدنيوية.

والقرآن الكريم بأسلوبه الفريد يصل إلى أعماق النفس، مخرجًا أفضل ما فيها، فهو شفاءٌ كاملٌ لجميع عللها وأدوائها، لا تملك النفس الإنسانية أمام بيانه الرائع الأخَّاذ إلا أن تعود إلى رشدها وصوابها، فتحيا حياةً طيبة مطمئنة.

وها نحن قد رأينا -من خلال هذا البحث- كيف أن سورةً واحدةً من سوره تحمل في طيّاتها هذا الكمّ الهائل من الأساليب التربوية، والهتافات الربانية، والتلقينات الإيمانية، التي تتوالى واحدة تلو الأخرى، فتأسر القلب، وتهذّب النفس والروح، عن طريق الترغيب تارةً والترهيب تارة أخرى، وتارة عن طريق ربط المؤمن بخالقه، وانسجامه مع الكون المسبّح لله من حوله، وتارة عن طريق دعوته إلى الإنفاق والتخلي عن البخل والإمساك، ومرّةً عن طريق تصوير مشاهد حقيقية، والموازنة بين فريق وآخر، وتارةً عن طريق ضرب الأمثال، وبيان حقائق الأمور، حتى لا تحزن النفس حزنًا مفرطًا على ما فاتها، ولا تفرح فرحًا مطغيًا بما أوتيت من خير، فكلّ شيءٍ مقدرٌ في علم الله من قبل خلق الإنسان، وتُبيّن السورة الكريمة أن المسلم إذ يؤمن بالله -تعالى- وبرسوله ﷺ فهو مؤمن كذلك بجميع الرسل من لدن آدم -عليه السلام- إلى نبينا محمدٍ ﷺ، متبع

للنور الذي جاءوا به، حاملٌ في قلبه الإقرار بوحدة رسالتهم، فالرسالات السماوية واحدة في جوهرها وأساسها ودعوتها، والمسلمون هم أحد أتباعها، وتُختتم السورة الكريمة بتحفيز المؤمن على تقوى الله -عزّ وجل- لنيل الأجر المضاعف منه -سبحانه- والحصول على النور والهدى الذي يميز به بين الحق والباطل، وتحصيل المغفرة، وابتغاء الأجر من الله -تعالى- وحده، ذلك أن الله ذو الفضل العظيم.

أهم التوصيات:

أوصي بزيادة الدراسات القرآنية التي تهتم بمجال التربية النفسية، وتسليط الضوء على المنهج التربوي الذي استخدمه القرآن الكريم في تربية النفس الإنسانية وتهذيبها والرقي بها.

هذا والله -تعالى- أعلم، وصلي اللهم على نبيّنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه وسلّم، والحمد لله ربّ العالمين.

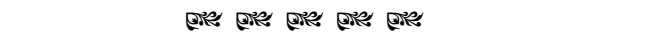

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: التفسير وعلوم القرآن

- "إرشاد العقل السليم"- أبو السعود - ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- "البحر المحيط" أبو حيان محمد بن يوسف لأندلسي- ط. دار الفكر – بيروت- الطبعة: ١٤٢٠هـ.
- "التحرير والتنوير"- محمد الطاهر بن عاشور- ط. دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م.
- "التفسير القرآني للقرآن"- عبد الكريم يونس الخطيب- ط. دار الفكر العربي – القاهرة.
- "التفسير الوسيط للقرآن الكريم" - د/ محمد سيد طنطاوي- ط. دار نهضة مصر- الفجالة- القاهرة- الطبعة: الأولى- ١٩٩٨م.
- "الجامع لأحكام القرآن"- القرطبي- ط. دار الكتب المصرية – القاهرة- الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري- ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي- ط. دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
- "تفسير أبي مسلم الأصفهاني المتوفى سنة ٣٢٢هـ - جمع وتحقيق: د/ خضر محمد بنها.
- "تفسير القرآن العظيم"- ابن أبي حاتم" - ط. مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية- الطبعة: الثالثة - ١٤١٩هـ.
- "تفسير القرآن العظيم" -ابن كثير- ط. دار طيبة -الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- "جامع البيان"- ابن جرير الطبري: ت: أحمد محمد شاكر- ط. مؤسسة الرسالة- الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

- "حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي"- مصلح الدين مصطفى بن إبراهيم الرومي الحنفي المتوفى سنة ٨٨٠ هـ - ط. دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط. الأولى- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"- محمود الألوسي- ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- "زاد المسير في علم التفسير- ابن الجوزي- المحقق: عبد الرزاق المهدي- الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
- "زاد المسير في علم التفسير"- عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي - ط. المكتب الإسلامي – بيروت- الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- "صفوة التفاسير" محمد علي الصابوني - ط. دار الصابوني- القاهرة-الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- "فتح القدير"- محمد بن علي الشوكاني: ط. دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.
- "لباب النقول في أسباب النزول"- عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي - ط. دار إحياء العلوم – بيروت- لبنان.
- "مفاتيح الغيب" - فخر الدين الرازي - ط. دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم"- الشيخ: محمد الغزالي- ط. دار الشروق- مصر.

ثالثًا: الحديث الشريف وعلومه

- "البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير"- سراج الدين بن الملقن - ط. دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض- الطبعة: الاولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- "الجامع الصحيح سنن الترمذي"- محمد بن عيسى الترمذي- ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت- تحقيق: أحمد محمد شاكر.
- "السنن الكبرى"- البيهقي - ط. مجلس دائرة المعارف النظامية- حيدر آباد- الهند - الطبعة: الأولى - ١٣٤٤هـ.
- "المعجم الأوسط"- الطبراني - ط. دار الحرمين – القاهرة

- "المعجم الكبير"-الطبراني- ط. مكتبة ابن تيمية – القاهرة- الطبعة: الثانية.
- "سنن الترمذي" محمد بن عيسى الترمذي، ط. مصطفى البابي الحلبي – مصر- الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
- "سنن النسائي" -ت: مكتب تحقيق التراث- ط. دار المعرفة ببيروت- الطبعة: الخامسة ١٤٢٠هـ،
- "شعب الإيمان" - البيهقي - ط. دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- "صحيح البخاري" ت: د. مصطفى ديب البغا- ط. دار ابن كثير، اليمامة – بيروت- الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.
- "صحيح مسلم" ت: محمد فؤاد عبد الباقي- ط. دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد"- نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي: ط. دار الفكر، بيروت - ١٤١٢هـ.

رابعًا: العقيدة

- "المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى"- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي - ط. الجفان والجابي – قبرص- الطبعة الأولى- ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- "تفسير أسماء الله الحسنى" أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) - المحقق: أحمد يوسف الدقاق – ط. دار الثقافة العربية.
- "روضات المتقيين في الأسماء التسعة والتسعين" د. عبد الفتاح عثمان إبراهيم- ط. مكتبة التركي- طنطا- ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.
- "لوامع البينات- شرح أسماء الله تعالى والصفات"- فخر الدين الرازي: ط. المطبعة الشرفية- مصر- الطبعة الأولى- ١٣٢٣ هـ.

خامسًا: التربية وعلم النفس

- "أسس التربية الإسلامية في السنّة النبوية" د. عبد الحميد الصّيد الزناتي- ط. الدار العربية للكتاب- الجماهرية العربية الليبية- الطبعة الثانية- ١٩٩٣م.
- "أسس علم النفس التربوي"- د/ هشام عثمان خوجلي: - مكتبة الرشد- الرياض- ١٤٢٦هـ.

- "أصول التربية المعاصرة"-أ. د/ رأفت عبد العزيز البويهي، وآخرون- ط. دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.
- "الإنسان في القرآن الكريم"- عباس محمود العقاد - ط. دار الهلال- ١٩٧١م.
- "التأصيل النفسي للدراسات النفسية- البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي"- محمد عز الدين توفيق – ط. دار السلام- القاهرة- ط. الثانية- ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- "الشخصية من منظور نفسي إسلامي"- د/ شادية أحمد التل- أستاذ علم النفس التربوي- جامعة اليرموك: ط. دار الكتاب الثقافي – الأردن – ٢٠٠٦م.
- "القرآن وعلم النفس"- د/ محمد عثمان نجاتي- أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة- ط. دار الشروق- القاهرة-الطبعة السابعة- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- "جدد حياتك"- الشيخ محمد الغزالي: ط. دار الكتب الإسلامية- القاهرة.
- "صيانة النفس الإنسانية" أ.د/ عبد الرحمن محمد العيسوي- ط. دار طيبة- مدينة نصر- القاهرة.

سادسًا: اللغة والمعاجم

- "المفردات في غريب القرآن" - أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) - ط. دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.
- "لسان العرب" جمال الدين ابن منظور- ط. دار صادر – بيروت- الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.
- "مختار الصحاح" محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي- تحقيق: محمود خاطر - ط. مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٤١٥ – ١٩٩٥م.
- "معجم اللغة العربية المعاصرة"- د أحمد مختار عبد الحميد، بمساعدة فريق عمل- ط. عالم الكتب- الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

سابعًا: أصول الفقه

- "المستصفى في علم الأصول" - أبو حامد الغزالي – ط. دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ- تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي.

ثامنًا: مناهج البحث العلمي

- "أبجديات البحث في العلوم الشرعية "- فريد الأنصاري- ط. دار النجاح

الجديدة- الدار البيضاء- ط. الأولى- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- "مناهج البحث العلمي" د. عبد الرحمن بدوي: ط. وكالة المطبوعات- الكويت- الطبعة: الثالثة- ١٩٧٧م.

تاسعًا: مقالات متنوعة

- "علماء النفس المسلمون في جحر الطب" مقال بمجلة المسلم المعاصر- العدد ١٦- ١ ديسمبر ١٩٧٨م.
- "من أسرار القرآن" مقال للدكتور/ زغلول النجار- نشر في جريدة الأهرام ضمن سلسلة: "من الآيات الكونية في القرآن الكريم"- بتاريخ ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١ م.
- "منهج تربوي فريد في القرآن"- د/ محمد سعيد رمضان البوطي- مقال بمجلة الوعي الإسلامي-وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- الكويت-السنة: (السابعة)- العدد: (٨١)- أكتوبر- ١٩٧١م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٦
تمهيد	١٢
المبحث الأول: التعريف بصفات الله -تعالى-، وبيان بعض مظاهر قدرته -ﷻ-، وأثر ذلك في تربية النفس الإنسانية.	١٦
المبحث الثاني: الدعوة إلى الإيمان بالله ورسولهﷺ، والإنفاق في سبيل الله، وأثر ذلك في تربية النفس الإنسانية.	٢٩
المبحث الثالث: عرض بعض مشاهد يوم القيامة، وأثره على النفس الإنسانية.	٣٨
المبحث الرابع: الترغيب في الرجوع إلى الله -تعالى-، وخشوع القلب لأوامره، وبيان جزاء المؤمنين والمصَّدِّقين، وأثر ذلك على النفس الإنسانية.	٤٤
المبحث الخامس: بيان حقيقة الحياة الدنيا، والدعوة للمسابقة إلى مغفرة الله وجنته، وأثر ذلك على النفس الإنسانية.	٥١
المبحث السادس: نهي المؤمن عن الحزن على ما فات، أو الفرح بما في يديه، لأن كل شيء قد سبقت كتابته عند الله، وذم البخل، وأثر ذلك على تربية النفس الإنسانية.	٥٦
المبحث السابع: بيان بعض الحكم من إرسال الرسل، وأن منها إقامة القسط بين الناس، وأثر ذلك على النفس الإنسانية.	٦٢
المبحث الثامن: ختام السورة بتحفيز المؤمن على تقوى الله -عزّ وجل- لنيل الأجر المضاعف، وابتغاء الفضل منه -عزّ وجلّ- وحده، وأثر ذلك على تربية النفس الإنسانية.	٦٧
خاتمة البحث	٧٣
فهرس المصادر والمراجع	٧٥
فهرس الموضوعات	٨٠